جبران خليل جبران

الأجنحة المتكسرة

Bibliotheca Alexandrina
0201881

المكتبة الثقافية

جبران خليل جبران

الأجنحة المتكسرة

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

الى التي تحدق الى الشمس
بأجفان جامدة ، وتقبض
على النار بأصابع غير
مرتعشة ، وتسمع نغمة
الروح « الكلي » من وراء
ضجيج العميان وصراخهم
الى M . E . H ، أرفـــع
هذا الكتاب .

جبران

توطئة

●

كنت في الثامنة عشرة عندما فتح الحب عيني بأشعته السحرية ، ولمس نفسي لأول مرة بأصـــابعه النارية . وكانت سلمى كرامه المرأة الأولى التي أيقظت روحي بمحاسنهـــا . ومشت أمامي إلى جنـــة العواطف العلوية ، حيث تمر الأيام كالأحلام وتنقضي الليالي كالأهراس .

سلمى كرامـــه هي علمتني عبادة الجمـــال بجمالها ، وأرتني خفـــايا الحب بانعطافها ، وهي التي أنشدت على مسمعي أول بيت من قصيدة الحياة المنوية .

أي فتى لا يذكر الصبيـــة الأولى التي أبدلت غفلة شبيبتـــه بيقظة هائلة بلطفها ، جارحة بعذوبتها ، فتاكة بحلاوتها ؟ من منا لا يذوب حنيناً إلى تلك الساعـــة الغريبة التي إذا انتبـــه فيها فجأة رأى كليته قـــد انقلبت وتحولت ، وأعماقـــه قـــد اتسعت وانبسطت وتبطنت بانفعالات لذيذة بكل ما فيها من مرارة الكتمان ، مستحبة بكل ما يكتنفها من الدموع والشوق والسهاد ؟

To: www.al-mostafa.com

لكل فتى سلمى تظهر على حين غفلة في ربيع حياته وتجعل لانفراده معنى شعرياً وتبدل وحشة أيامه بالأنس ، وسكينة لياليه بالأنغام .

كنت حائراً بين تأثيرات الطبيعة وموحيات الكتب والأسفار عندما سمعت الحب يهمس بشفتي سلمى في آذان نفسي ، وكانت حياتي خالية مقفرة باردة شبيهة بسبات آدم في الفردوس عندما رأيت سلمى منتصبة أمامي كعمود النور . فسلمى كرامه هي حواء هذا القلب المملوء بالأسرار والعجائب ، وهي التي افهمته كنه هذا الوجود وأوقفته كالمرآة أمام هذه الأشباح. حواء الأولى اخرجت آدم من الفردوس بإرادتها وانقياده ، أما سلمى كرامه فأدخلتني الى جنة الحب والطهر بحلاوتها واستعدادي ، ولكن ما أصاب الإنسان الأول قد أصابني ، والسيف الناري الذي طرده من الفردوس هو كالسيف الذي أخافني بلمعان حده وأبعدني كرهاً عن جنة المحبة قبل أن أخالف وصية وقبل أن أذوق طعم ثمار الخير والشر .

واليوم ، وقد مرت الأعوام المظلمة طامسة بأقدامها رسوم تلك الأيام ، لم يبق لي من ذلك الحلم الجميل سوى تذكارات موجعة ترفرف كالأجنحة غير المنظورة حول رأسي مثيرة تنهدات الأسى في أعماق صدري مستقطرة دموع اليأس والأسف من أجفاني .. وسلمى — سلمى

الجميلة العذبة قد ذهبت إلى مـا وراء الشفق الأزرق ولم يبق من آثارها في هـــذا العالم سوى غصات أليمة في قلبي وقبر رخامي منتصب في ظلال أشجار السرو . فذلك القبر وهذا القلب هما كل ما بقي ليحدث الوجـود عن سلمى كرامه ، غير أن السكينة التي تخفر القبور لا تفشي ذلك السر المصون الذي أخفته الآلهـة في ظلمات التابوت ، والأغصان التي امتصت عناصر الجسد لا تبيح بحفيفهـا مكنونات الحفرة . اما غصات هذا القلب وأوجـاعه فهي التي تتكلم وهي التي تنسكب الآن مع قطرات الحبر السوداء معلنة للنور أشباح تلك المأساة التي مثلها الحب والجمال والموت .

فيا أصدقاء شبيبتي المنتشرين في بيروت ، إذا مررتم بتلك المقبرة القريبة من غابة الصنوبر ادخلوها صامتين وسيروا ببطء كيلا توجع أقدامكم رفـــات الراقدين تحت أطباق الثرى ، وقفوا متهيبين بجانب قبر سلمى وحيوا عني التراب الذي ضم جثمانها ثم اذكروني بتنهدة قائلين في نفوسكم: ههنا دفنت آمال ذلك الفتى الذي نفته صروف الدهر الى ما وراء البحـار ، وههنـــا توارت أمانيه وانزوت أفراحـه وغارت دموعه واضمحلت ابتساماته ، وبين هذه المدافن الخرساء تنمو كآبته مع أشجار السرو والصفصاف ، وفوق هـــذا القبر ترفرف روحه كل ليلة مستأنسة بالذكرى ، مرددة مع أشباح الوحشة ندبات الحزن والأسى ، نائحة مـع الغصون على صبية كانت

١٠ ـــــــ

الكآبة الخرساء

●

أنتم أيها الناس تذكرون فجر الشبيبة فرحين باسترجاع رسومه متأسفين على انقضائه ، أما أنا فأذكره مثلما يذكر الحر المعتق جدران سجنه وثقل قيوده . أنتم تدعون تلك السنين التي تجيء بين الطفولة والشباب عهداً ذهبياً يهزأ بمتاعب الدهر وهواجسه ويطير مرفرفاً فوق رؤوس المشاغل والهموم مثلما تجتاز النحلة فوق المستنقعات الخبيثة سائرة نحو البساتين المزهرة ؛ أمـــا أنا فلا استطيع أن أدعو سني الصبا سوى عهد آلام خفية خرساء كانت تقطن قلبي وتثور كالعواصف في جوانبه وتتكاثر نامية بنموه ، ولم تجد منفذا تتصرف منه الى عالم المعرفة حتى دخـــل اليه الحب وفتح أبوابه وأثار زواياه . فالحب قد أعتق لساني فتكلمت ومزق أجفـــاني فبكيت وفتح حنجرتي فتنهدت وشكوت .

أنتم أيهـــا الناس تذكرون الحقول والبساتين والساحات وجوانب الشوارع التي رأت ألعابكم وسمعت همس طهركم ، وأنا أيضاً أذكر تلك البقعة الجميـــلة من شمال لبنان ، فما

١٢ ـــــــ

قوة خفيفة تحلق به في السحاب وتريه محاسن الكائنات من وراء ضباب الأحلام ، وقوة ظاهرة تقيده بالأرض وتغمر بصيرته بالغبار وتتركه ضائعاً خائفاً في ظلمة حالكة .

الكآبة ايد حريرية الملامس قوية الأعصاب تقبض على القلوب وتؤلمها بالوحدة ، فالوحدة حليفة الكآبة كما أنها أليفة كل حركة روحية . ونفس الصبي المنتصبة أمام عوامل الوحدة وتأثيرات الكآبة شبيهة بالزنبقة البيضاء عند خروجها من الكمام ترتعش أمام النسيم وتفتح قلبها لأشعة الفجر وتضم اوراقها بمرور أخيلة المساء ، فان لم يكن للصبي من الملاهي ما يشغل فكرته ومن الرفاق من يشاركه في الميول كانت الحياة امامه كحبس ضيق لا يرى في جوانبه غير اذيال العناكب ولا يسمع من زواياه سوى دبيب الحشرات .

أما تلك الكآبة التي اتبعت أيام حداثتي فلم تكن ناتجة عن حاجتي الى الملاهي لأنها كانت متوفرة لدي ، ولا عن افتقاري إلى الرفاق لأنني كنت أجدهم أينما ذهبت ، بل هي من اعراض علة طبيعية في النفس كانت تحبب اليّ الوحدة والانفراد ، وتميت في روحي الميول الى الملاهي والالعاب ، وتخلع عن كتفي أجنحة الصبا ، وتجعلني أمام الوجود كحوض مياه بين الجبال يعكس بهدوئه الحزن رسوم الأشباح وألوان الغيوم وخطوط الأغصان ، ولكنه لا يجد مراً يسير فيه جدولاً مترغاً إلى البحر .

١٤ ـــــــ

يـد القضاء

●

كنت في بيروت في ربيع تلك السنة المملوءة بالغرائب ، وكان نيسان قد أنبت الأزهار والأعشاب فظهرت في بساتين المدينة كأنها اسرار تعلنها الأرض للسماء .وكانت أشجار اللوز والتفاح قد اكتست بحلل بيضاء معطرة فبانت بـــين المنازل كأنها حوريات بملابس ناصعة قـد بعثت بهن الطبيعة عرائس وزوجات لابناء الشعر والخيال .

الربيـع جميل في كل مكان ولكنه اكثر من جميل في سوريا.. الربيع روح إله غير معروف تطوف في الأرض مسرعة وعندما تبلغ سوريا تسير ببطء متلفتـــة الى الوراء مستأنسة بأرواح الملوك والأنبياء الحائمة في الفضاء ، مترنمة مع جداول اليهودية بأناشيد سليمان الخالدة ، مرددة مع أرز لبنان تـذكارات المجد القديم .

وبيروت في الربيع أجمل منها في ما بقي من الفصول لانها تخلو فيه من أوحال الشتاء وغبار الصيف وتصبح بين أمطار الأول وحرارة الثاني كصبية حسناء قد اغتسلت بمياه الغدير ثم جلست على ضفته تجفف جسدها بأشعة الشمس .

ففي يوم من تلك الأيام المفعمة بأنفـــاس نيسان المسكرة وابتساماته المحيية ، ذهبت لزيارة صـديق يسكن بيتاً بعيداً عن ضجة الاجتماع. وبينما نحن نتحدث راسمين بالكلام خطوط آمالنا وأمانينا دخل علينا شيخ جليل في الخامسة والستين من عمره تدل ملابسه البسيطة وملامحه المتجعدة على الهيبة والوقار فوقفت احتراماً ، وقبيل ان اصافحه مسلماً تقـــدم صديقي وقال : حضرته فارس أفندي كرامه . ثم لفظ اسمي مشفوعاً بكلمة ثناء ، فحدق إليّ الشيخ هنيهة لامساً باطراف اصابعه جبهته العالية المكللة بشعر أبيض كالثلج كأنه يريد أن يسترجع إلى ذاكرته صورة شيء قديم مفقود ثم ابتسم ابتسامة سرور وانعطاف واقترب مني قائـلا : انت ابن صديق حبيب قديم صرفت ربيع العمر برفقتـه ، فيا أعظم فرحي بمرآك وكم أنا مشتاق إلى لقاء أبيك بشخصك !

فتأثرت لكلامه وشعرت بجاذب خفي يدنيني اليه بطمأنينة مثلما تقود الغريزة العصفور إلى وكره قبيـل مجيء العاصفة . ولما جلسنا أخذ يقص علينا أحاديث صداقته لوالدي متذكراً أيام الشباب التي صرفها بقربه تالياً على مسامعنا اخبار أعوام قضت فكفنها الدهر بقلبه وقبرها في صـدره ... ان الشيوخ يرجعون بالفكر إلى أيام شبابهم رجوع الغريب المشتاق إلى مسقط رأسه ، ويميلون الى سرد حكايات الصبـا ميل الشاعر الى تنغيم أبلغ قصائده ، فهم يعيشون بالروح في زوايا

الماضي الغـــابر لان الحاضر يمر بهم ولا يلتفت ، والمستقبل يبدو لأعينهم متشحاً بضباب الزوال وظلمة القبر .

وبعد ساعة مرت بين الأحاديث والتذكارات مرور ظل الأغصان على الأعشاب ، وقف فارس كرامه للانصراف ، ولما دنوت منه مودعاً أخذ يدي بيمينه ووضع شماله على كتفي قائلاً : أنا لم أرَ والدك منذ عشرين سنة ولكنني أرجو ان أستعيض عن بعاده الطويل بزياراتك الكثيرة .

فانحنيت شاكراً واعداً بتتميم مـــا يجب على الابن نحو صديق أبيه .

ولما خرج فارس كرامه استزدت صاحبي من أخباره فقال بلهجة يساورها التحدر : لا اعرف رجلاً سواه في بيروت قد جعلته الثروة فاضلاً والفضيلة مثريا . وهو واحد من القليلين الذين يحيشون هـــذا العالم ويغادرونه قبل أن يلامسوا بالأذى نفس مخلوق ، ولكن هؤلاء الرجـــال يكونون غالباً تعساء مظلومين ، لأنهم يجهلون سبل الاحتيال التي تتقدم من مكر الناس وخبثهم ... ولفارس كرامه ابنة وحيدة تسكن معه منزلاً فخماً في ضاحية المدينة ، وهي تشابهه بالأخلاق وليس بين النساء من تماثلها رقة وجمالا ، وهي ايضاً ستكون تاعسة لأن ثروة والدها الطائلة توقفها الآن على شفير هاوية مظلمة مخيفة .

لفظ صديقي الكلمات الأخيرة وظهرت على محياه لوائح الغم والأسف ثم زاد قائلا : فارس كرامه شيخ شريف القلب كريم الصفات ولكنه ضعيف الارادة يقوده رياء الناس كالأعمى وتوقفه مطامعهم كالأخرس . أما ابنته فتخضع ممتثلة لارادته الواهنة على رغم كل مافي روحها الكبيرة من القوى والمواهب. وهذا هو السر الكامن وراء حياة الوالد وابنته . وقد فهم هذا السر رجل يأتلف في شخصه الطمع بالرياء والخبث بالدهاء ، وهذا الرجل هو مطران تسير قبائحه بظل الانجيل فتظهر للناس كالفضائل.هو رئيس دين في بلاد الأديان والمذاهب تخافه الأرواح والأجساد وتخر لديه ساجدة مثلما تنحني رقاب الانعام أمام الجزار . ولهذا المطران ابن أخ تتصارع في نفسه عناصر المفاسد والمكاره مثلما تتقلب العقارب والأفاعي على جوانب الكهوف والمستنقعات . وليس ببعيـــداً اليوم الذي ينتصب فيه المطران بلابسه الحبرية جاعلا ابن أخيه عن يمينه وابنة فارس كرامه عن شماله رافعاً بيده الأثيمة اكليل الزواج فوق رأسيهما مقيداً بسلاسل التكهين والتعزيم جسداً طاهراً بجيفة منتنة ، جامعاً في قبضة الشريعة الفاسدة روحاً سماوية بذات ترابية ، واضعاً قلب النهار في صدر الليل . هذا كل ما أستطيع ان اقوله لك الآن عن فارس كرامه وابنته فلا تسلني اكثر من ذلك لأن ذكر المصيبة يدنيها مثلما يقرب الموت الخوف من الموت .

وحوّل صديقي وجهه ونظر من النافذة الى الفضاء كأنه يبحث عن أسرار الأيام والليالي بين دقائق الأثير .

فقمت إذ ذاك من مكاني ، ولما اخذت يده مودعاً قلت له : غداً أزور فارس كرامه قياماً بوعدي له واحتراماً للتذكارات التي ابقتها صداقته لوالدي .

فبهت بي الشاب دقيقة وقـــد تغيرت ملامحه كأن كلماتي القليلة البسيطة قد أوحت اليه فكراً جديداً هائلاً ، ثم نظر في عيني نظرة طويلة غريبة — نظرة محبة وشفقة وخوف — نظرة نبي يرى في أعماق الارواح ما لا تعرفه الارواح ، ثم ارتعشت شفتاه قليلاً ولكنه لم يقل شيئاً ، فتركته وسرت نحو الباب بأفكار متضعضعة ، وقبيـل ان يلتفت الى الوراء رأيت عينيه ما زالتـا تتبعانني بتلك النظرة الغريبة — تلك النظرة التي لم أفهم معانيها حتى عتقت نفسي من عالم المقاييس والكمية وطارت إلى مسارح الملإ الأعلى حيث تتفاهم القلوب بالنظرات وتنمو الارواح بالتفاهم .

في باب الهيكل

●

وبعد أيام وقد مللت الوحدة وتعبت أجفاني من النظر الى أوجه الكتب العابسة علوت مركبة طالباً منزل فارس كرامه ، حتى إذا ما بلغت بي غابة الصنوبر حيث يذهب القوم للتنزه حوّل السائق وجهة فرسيه عن الطريق العمومية فسار خبباً على ممر تظلله اشجار الصفصاف وتتايل على جانبيه الأعشاب والدوالي المتمرشة وأزاهر نيسان المبتسمة بثغور حمراء كالياقوت وزرقاء كالزمرد وصفراء كالذهب .

وبعد دقيقة وقفت المركبة أمام منزل منفرد تحيط بـه حديقة مترامية الأطراف تتعانق في جوانبها الاغصان وتعطر فضاءها رائحة الورد والفل والياسمين .

ما سرت بضع خطوات في تلك الحديقة حتى ظهر فارس كرامه في باب المنزل خارجاً للقائي كأن هدير المركبة في تلك البقعة المنفردة قد أعلن له قدومي ، فهش متأملاً وقـادني مرحباً الى داخل الدار ، ونظير والد مشتاق اجلسني بقربه يحدثني مستفسراً عن ماضيّ مستطلعاً مقاصدي في مستقبلي ، فكنت أجيبه بتلك اللهجة المفعمة بنغمة الأحلام والأماني

التي يترنم بها الفتيان قبل أن تقذفهم أمواج الخيال إلى شاطىء العمل حيث الجهاد والنزاع ... للشبيبة أجنحة ذات ريش من الشعر وأعصاب من الأوهام ترتفع بالفتيان إلى مـــا وراء الغيوم فيرون الكيان مغموراً بأشعة متلونة بألوان قوس قزح ، ويسمعون الحياة مرتلة أغاني المجد والعظمة ، ولكن تلك الأجنحة الشعرية لا تلبث أن تمزقها عواصف الاختبار فيهبطون إلى عالم الحقيقة ، وعالم الحقيقة مرآة غريبة يرى فيها المرء نفسه مصغرة مشوهة .

في تلك الدقيقة ظهرت من بين ستائر الباب الحملية صبية ترتدي أثواباً من الحرير الأبيض الناعم ومشت نحوي ببطء ، فوقفت ووقف الشيخ قائلاً : هذه ابنتي سلمى . وبعد أن لفظ اسمي شفعه بقوله : ان ذاك الصديق القديم الذي حجبته عني الأيام قد عادت فأبانته لي بشخص ابنه ، فانا أراه الآن ولا أراه . فتقدمت الصبية إلي وحدقت إلى عينيّ كأنها تريد أن تستنطقها عن حقيقة امري وتعلم منها أسباب مجيئي إلى ذلك المكان ، ثم اخذت يدي بيد تضارع زنبقة الحقل بياضاً ونعومة ، فأحسست عند ملامسة الأكف بعاطفـــة غريبة جديدة اشبه شيء بالفكر الشعري عند ابتداء تكوينه في مخيلة الكاتب .

جلسنا جميعاً ساكتين كأن سلمى قد ادخلت معها إلى تلك الغرفة روحاً علوية توعز الصمت والتهيب ، وكأنها شعرت بذلك فالتفتت نحوي وقالت مبتسمة : كثيراً مـــا حدثني

٢٢ ـــــــ

جالسة بقرب تلك النافذة تنظر إلينا بعينيها الحزينتين ولا تتحرك وتسمع أحاديثنا ولا تتكلم كأنها عرفت ان الجمال لغة سماوية تترفع عن الاصوات والمقاطع التي تحدثها الشفاه والألسنة ، لغة خالدة تضم اليها جميع انغام البشر وتجعلها شعوراً صامتاً مثلما تجتذب البحيرة الهادئة أغاني السواقي الى أعماقها وتجعلها سكوتاً أبدياً . ان الجمال سر تفهمه أرواحنا وتفرح به وتنمو بتأثيراته ، أما أفكارنا فتقف أمامه حيارة محاولة تحديده وتجسيده بالألفاظ ولكنها لا تستطيع . هو سيال خاف عن العين يتموج بين عواطف الناظر وحقيقة المنظور . الجمال الحقيقي هو أشعة تنبعث من قدس أقداس النفس وتنير خارج الجسد مثلما تنبثق الحياة من أعماق النواة وتكتسب الزهرة لوناً وعطراً ـ هو تفاهم كلي بين الرجل والمرأة يتم بلحظة ، وبلحظة يولد ذلك الميل المترفع عن جميع الميول ـ ذلك الانعطاف الروحي الذي ندعوه حباً ، فهل فهمت روحي روح سلمى في عشية ذلك النهار فجعلني التفاهم أراها أجمل امرأة امام الشمس ام هي سكرة الشبيبة التي تجعلنا نتخيل رسوماً واشباحاً لا حقيقة لها؟ هل اعمتني الفتوة فتوهمت الاشعة في عيني سلمى والحلاوة في ثغرها والرقة في قدها ام هي تلك الأشعة وتلك الحلاوة وتلك الرقة التي فتحت عيني لتريني أفراح الحب وأحزانه ؟ لا أدري ولكنني أعلم انني شعرت بعاطفة لم أشعر بها قبل تلك الساعة ، عاطفة جديدة تمايلت حول قلبي بهدوء يشابه رفرفة الروح على وجه الغمر قبل ان تبتدىء الدهور . ومن تلك العاطفة قد تولدت سعادتي

وتماسكي مثلما ظهرت وتناسخت الكائنات بارادة ذلك الروح.

هكذا انقضت تلك الساعة التي جمعتني بسلمى لأول مرة ، وهكذا شاءت السماء واعتقتني على حين غفلة من عبودية الحيرة والحداثة لتسيرني حرّاً في موكب المحبة ، فالمحبة هي الحرية الوحيدة في هذا العالم لانها ترفع النفس إلى مقام سام لا تبلغه شرائع البشر وتقاليدهم ولا تسوده نواميس الطبيعة وأحكامها .

ولما وقفت للانصراف اقترب مني فارس كرامه وقال بصوت تعانقه رنة الاخلاص : الآن وقد عرفت الطريق الى هذا المنزل يجب أن تأتي اليه شاعراً بالثقة التي تقودك إلى بيت أبيك وأن تحسبني وسلمى كوالد وأخت لك ـ اليس كذلك يا سلمى ؟

فحنت سلمى رأسها إيجاباً ثم نظرت إليّ نظرة غريب ضائع وجد رفيقاً يعرفه .

ان تلك الكلمات التي قالها لي فارس كرامه هي النغمة الأولى التي أوقفتني بجانب ابنته أمام عرش المحبة هي استهلال الأغنية السماوية التي انتهت بالنحيب والرثاء . هي القوة التي شجعت روحينا فاقتربنا من النور والنار . هي الإناء الذي شربنا فيه الكوثر والعلقم .

وخرجت فشيعني الشيخ الى اطراف الحديقة ، فودعتها وقلبي يخفق في داخلي مثلما ترتعش شفتا العطشان بملامسة حافة الكأس .

الشعلة البيضاء

●

وانقضى نيسان وأنا أزور منزل فارس كرامـــه وألتقي سلمى وأجلس قبالتها في تلك الحديقة متأملاً محاسنها ، معجباً بمواهبها، مصغياً لسكينة كآبتها ، شاعراً بوجود أيد خفيـة تجتذبني اليها . فكل زيارة كانت تبين لي معنىً جـــديداً من معاني جمالها وسرّاً علوياً من أسرار روحها حتى أصبحت أمام عيني كتاباً أقرأ سطوره وأستظهر آياته وأترنم بنغمتـــه ولا استطيع الوصول الى نهايته .

ان المرأة التي تمنحها الآلهة جمال النفس مشفوعاً بجمال الجسد هي حقيقة ظاهرة غامضة نفهمها بالمحبة ونلمسها بالطهر ، وعندما نحاول وصفها بالكلام تختفي عن بصائرنا وراء ضباب الحيرة والالتباس .

وسلمى كرامه كانت جميلة النفس والجسد ، فكيف أصفها لمن لا يعرفها ؟ هل يستطيع الجالس في ظل أجنحة الموت أن يستحضر تغريدة البلبل ، وهمس الوردة ، وتنهـــدة الغدير ؟ أيقدر الأسير المثقل بالقيود ان يلاحق هبوب نسمات الفجر ؟

ولكن أليس السكوت أصعب من الكلام ؟ وهل يمنعني التهيب عن إظهار خيال من أخيلة سلمى بالألفاظ الواهية اذا كنت لا استطيع أن أرسم حقيقتها بخطوط من الذهب ؟ إن الجائع السائر في الصحراء لا يأبى أكل الخبز اليابس إذا كانت السماء لا تمطره المن والسلوى .

كانت سلمى نحيلة الجسم تظهر بملابسها البيضاء الحريرية كأشعة قمر دخلت من النافذة. وكانت حركاتها بطيئة متوازنة اشبه شيء بمقاطيع الالحان الاصفهانية ، وصوتها منخفضاً حلواً تقطعه التنهدات، فينسكب من بين شفتيها القرمزيتين مثلما تتساقط قطرات الندى عن تيجان الزهور بمرور تموجات الهواء .. ووجهها — ومن يا ترى يستطيع أن يصف وجه سلمى كرامه ؟ بأية ألفاظ نقدر أن نصور وجهاً حزيناً هادئاً محجوباً وليس محجوباً بنقاب من الاصفرار الشفاف ؟ بأية لغة نقدر أن نتكلم عن ملامح تعلن في كل دقيقة سراً من أسرار النفس وتذكر الناظرين اليها بعالم روحي بعيد عن هذا العالم !

ان الجمال في وجه سلمى لم يكن منطبقاً على المقاييس التي وضعها البشر للجمال ، بل كان غريباً كالحلم او كالرؤيا او كفكر علوي لا يقاس ولا يحد ولا ينسخ بريشة المصور ، ولا يتجسم برخام الحفار . جمال سلمى لم يكن في شعرها الذهبي بل في هالة الطهر المحيطة به . ولم يكن في عينيها الكبيرتين بل في النور المنبعث منهما . ولا في شفتيها الورديتين بل في

الحلاوة السائلة عليها . ولا في عنقهـــا العاجي بل في كيفية انحنائه قليلاً إلى الأمام . جمال سلمى لم يكن في كمال جسدها بل في نبالة روحها الشبيهة بشعلة بيضاء متقدة سابحة بين الأرض واللانهاية . جمال سلمى كان نوعاً من ذلك النبوغ الشعري الذي نشاهد اشباحه في القصائد السامية والرسوم والانغام الخالدة . وأصحاب النبوغ تعساء مهما تسامت أرواحهم تظل مكتنفة بغلاف من الدموع .

وكانت سلمى كثيرة التفكير قليلة الكلام ، لكن سكوتها كان موسيقياً ينتقل بجليسها الى مسارح الأحـــلام البعيدة ، ويجعله يصغي لنبضات قلبه ، ويرى أخيلة افكاره وعواطفه منتصبة أمام عينيه .

أما الصفة التي كانت تعانق مزايا سلمى وتساور أخلاقها فهي الكآبة العميقة الجارحة ، فالكآبة كانت وشاحاً معنوياً ترتديه فتزيد محاسن جسدها هيبة وغرابة ، وتظهـــر أشعة نفسهـــا من خلال خيوطه كخطوط شجرة مزهرة من وراء ضباب الصباح . وقد أوجدت الكآبة بين روحي وروح سلمى صلة المشابهة ، فكان كلانا يرى في وجه الثاني ما يشعر به قلبه ويسمع بصوته صدى مخبآت صدره ، فكأن الآلهة قد جعلت كل واحد منـــا نصفاً للآخر يلتصق به بالطهر فيصير انساناً كاملاً ، وينفصل عنه فيشعر بنقص موجع في روحه .

إن النفس الحزينة المتـــألمة تجد راحة بانضمامها الى نفس

أخرى تماثلها بالشعور وتشاركها بالاحساس مثلما يستأنس الغريب بالغريب في أرض بعيدة عن وطنها — فالقلوب التي تدنيها أوجاع الكآبة بعضها من بعض لا تفرقها بهجة الأفراح وبهرجتها . فرابطة الحزن أقوى في النفوس من روابط الغبطة والسرور . والحب الذي تغسله العيون بدموعها يظل طاهراً وجميلاً وخالداً .

العـــاصفة

●

وبعد أيام دعاني فارس كرامه إلى تناول العشاء في منزله، فذهبت ونفسي جائعة إلى ذلك الخبز العلوي الذي وضعته السماء بين يدي سلمى، ذلك الخبز الروحي الذي نلتهمه بأفواه أفئدتنا فنزداد جوعاً ، ذلك الخبز السحري الذي ذاق طعمه قيس العربي ودانتي الطلياني وسافو اليونانية فالتهبت أحشاؤهم وذابت قلوبهم ، ذلك الخبز الذي عجنته الآلهة بحلاوة القبل ومرارة الدموع وأعدته مأكلا للنفوس الحساسة المستيقظـــة لتغـ ـحها بطعمه وتعذبها بتأثيره .

ولما بلغت المنزل وجدت سلمى جالسة على مقعـد خشبي في زاوية من الحديقة وقد أسندت رأسها الى عمد شجرة فبانت بثوبها الأبيض كواحدة من عرائس الخيال تخفر ذلك المكان ، فدنوت منها صامتاً وجلست بقربها جلوس مجوسي متهيب أمام النار المقدسة ، ولما حاولت الكلام وجدت لساني منعقداً وشفتيّ جامدتين فاستأنست بالسكوت ، لأن الشعور العميق غير المتناهي يفقد شيئاً من خاصته المعنوية عندما يتجسم بالألفاظ المحدودة ، ولكنني شعرت بأن سلمى كانت تسمع في

٣٠ ـــــــ

النهوض لضعفه . ثلاثة جالسون حول مائدة انيقة في منزل منفرد عن المدينة تخيم عليه سكينة الدجى وتحدق اليه عيون السماء ، ثلاثة يأكلون ويشربون وفي اعماق صحونهم وكؤوسهم قد اخفى القدر المرارة والاشواك .

ولم ننته من العشاء حتى دخلت علينا احدى الخادمات وخاطبت فارس كرامه قائلة :في الباب رجل يطلب مقابلتك يا سيدي .

فسألها : من هو هذا الرجل ؟ فأجابت : اظنه خادم المطران يا سيدي . فسكت دقيقـــة وحدق إلى عيني ابنته نظير نبي ينظر الى وجه السماء ليرى ما تخبئه من الأسرار ، ثم التفت نحو الخادمة وقال : دعيه يدخل .

فعادت الخادمة ، وبعد هنيهة ظهر رجل بأثواب مزركشة وشارب معقوف الطرفـــين ، فسلم منحنيا وخاطب فارس كرامه قائلا : قد بعثني سيادة المطران بمركبته الخصوصية لاطلب اليك ان تتكرم بالذهاب اليه ، فهو يريد أن يباحثك بأمور ذات أهمية .

فانتصب الشيخ وقد تغيرت ملامحه وانحجبت بشاشة وجهه وراء نقاب من التأمل والتفكير ، ثم اقترب مني وقال بصوت تساوره الرقـــة والحلاوة : أرجو أن اعود والقاك ههنا ، فسلمى ستجد بك مؤنسا يبعد بأحاديثه وحشة الليل ، ويزيل بأنغام نفسه تأثير الوحدة والانفراد . ثم التفت نحو ابنته وزاد مبتسماً : اليس كذلك يا سلمى ؟

٣٢ ـــــــ

السجون الضيقة ، وهذا العالم لا يمتاز عن المنفى البعيد ؟

ونظرت سلمى إلي وقد باحت أجفانها بسرائر نفسها ثم قالت بهدوء سحري : تعال نخرج إلى الحديقة ونجلس بين الأشجار لنرى القمر طالعاً من وراء الجبل .

فوقفت مطيعاً وقلت ممانعاً : أليس الأفضل أن نبقى ههنا يا سلمى حتى يطلع القمر وينير الحديقة ؟ أما الآن فالظلام يحجب الأشجار والأزهار فلا نستطيع أن نرى شيئاً .

فأجابت : إذا حجب الظلام الأشجار والرياحين عن العين فالظلام لا يحجب الحب عن النفس .

قالت هذه الكلمات بلهجة غريبة ، ثم حوّلت عينيها ونظرت نحو النافذة ، فبقيت أنا صامتاً مفكراً بكلماتها مصوراً لكل مقطع معنى ، راسماً لكل معنى حقيقة ، ثم عادت فحدّقت إليّ كأنها ندمت على ما قالت فحاولت استرجاع كلماتها من أذنيّ بسحر أجفانها . ولكن سحر تلك الأجفان لم يسترجع تلك الألفاظ إلا ليعيدها إلى أعماق صدري أكثر وضوحاً وأشد تأثيراً وليبقيها هناك ملتصقة بقلبي متموجة مع عواطفي الى آخر الحياة

كل شيء عظيم وجميل في هذا العالم يتولد من فكر واحد أو من حاسة واحدة في داخل الانسان . كل ما نراه اليوم من أعمال الأجيال الغابرة كان قبل ظهوره فكراً خفياً في عاقلة رجل أو عاطفة لطيفة في صدر امرأة ... الثورات الهائلة

التي أجرت الدماء كالسواقي وجعلت الحرية تعبد كالآلهة كانت فكراً خيالياً مرتعشاً بين تلافيف دماغ رجل فرد عائش بين ألوف من الرجال . والحروب الموجعة التي ثلت العروش وخربت الممالك كانت خاطراً يتمايل في رأس رجل واحد . والتعاليم السامية التي غيرت مسير الحياة البشرية كانت ميلاً شعرياً في نفس رجل واحد منفصل بنبوغه عن محيطه . فكر واحد أقام الأهرام وعاطفة واحدة خربت تروادة وخاطر واحد أوجد مجد الإسلام وكلمة واحدة أحرقت مكتبة الاسكندرية .

فكر واحد يجيئك في سكينة الليل يسير بك إلى المجد أو إلى الجنون . نظرة واحدة من أطراف أجفان امرأة تجعلك أسعد الناس أو أتعسهم . كلمة واحدة تخرج من بين شفتي رجل تصيرك غنياً بعد الفقر أو فقيراً بعد الغنى ... كلمة واحدة لفظتها سلمى كرامه في تلك الليلة الهادئة أوقفتني بين ماضيّ ومستقبلي وقوف سفينة بين لجة البحار وطبقات الفضاء . كلمة واحدة معنوية قد أيقظتني من سبات الحداثة والخلو وسارت بأيامي على طريق جديدة إلى مسارح الحب حيث الحياة والموت .

خرجنا إلى الحديقة وسرنا بين الأشجار شاعرين بأصابع النسيم الخفية تلامس وجهينا وقامات الأزهار والأعشاب اللدنة تتمايل بين أقدامنا ، حتى إذا ما بلغنا شجرة الياسمين جلسنا صامتين على ذلك المقعد الخشبي نسمع تنفس الطبيعة

النائمة ونكشف بحلاوة التنهد خفايا صدرينا أمام عيون السماء الناظرة الينا من وراء ازرقاق السماء .

وطلع القمر إذ ذاك من وراء صنّين وغمر بنوره تلك الروابي والشواطىء ، فظهرت القرى على اكتاف الأودية كأنها قد انبثقت من اللاشيء ، وبان لبنان جميعه من تحت تلك الأشعة الفضية كأنه فتى متكىء على ساعده تحت نقاب لطيف يخفي أعضاءه ولا يخفيها .

لبنان عند شعراء الغرب مكان خيالي قد اضمحلت حقيقته بذهاب داود وسليمان والأنبياء مثلما انحجبت جنة عدن بسقوط آدم وحواء ، هو لفظة شعرية لا اسم جبل — لفظة ترمز عن عاطفة في النفس وتستحضر إلى الفكر رسوم غابات من الأرز يفوح منها العطر والبخور ، وأبراج من النحاس والرخام تتعالى بالمجد والعظمة ، واسراب من الغزلان تتهادى بين الطلول والأودية . وانا قد رأيت لبنان في تلك الليلة مثل فكر شعري خيالي منتصب كالحلم بين اليقظة واليقظة . كذا تتغير الأشياء أمام أعيننا بتغير عواطفنا ، وهكذا نتوهم الأشياء متشحة بالسحر والجمال عندما لا يكون السحر والجمال إلا في نفوسنا .

والتفتت إليّ سلمى وقد غمر نور القمر وجهها وعنقها ومعصميها فبانت كتمثال من العاج نحتته أصابع متعبد لعشتاروت ربة الحسن والمحبة : لماذا لا تتكلم ؟ لماذا لا تحدثني عن ماضي حياتك ؟

فنظرت إلى عينيها المنيرتين ، ومثل أخرس فاجأ النطق شفتيه أجبتها قائلا : ألم تسمعيني متكلماً مذ جئت إلى هـذا المكان ؟ أو لم تسمعي كل ما قلته مذ خرجنا إلى هذه الحديقة ؟ إن نفسك التي تسمع همس الأزهار وأغاني السكينة تستطيع أن تسمع صراخ روحي وضجيج قلبي .

فحجبت وجهها بيديها ثم قالت بصوت متقطع : قد سمعتك ... نعم سمعتك . سمعت صوتاً صارخاً خارجاً من احشاء الليل وضجة هائلة منبثقة من قلب النهار.

فقلت بسرعـــة وقد نسيت ماضي حياتي ونسيت كياني ونسيت كل شيء ولم أعد أعرف سوى سلمى ولا أشعر بغير وجودها : وأنا قد سمعتك يا سلمى — سمعت نغمة عظيمة محيية جارحة تتموج لها دقائق الفضاء وتهتز بارتعاشها أسس الأرض .

فأغمضت سلمى أجفانها وظهر على شفتيها القرمزيتين خيال ابتسامة محزنة ثم همست قائـــلة : قد عرفت الآن انه يوجد شيء أعلى من السماء وأعمق من البحر وأقوى من الحياة والموت والزمن . وقـد عرفت الآن مـا لم أكن اعرفـه بالأمس ولا أحلم به .

منذ تلك الدقيقة صارت سلمى كرامـه أعز من الصديق وأقرب من الأخت وأحب من الحبيبة . صارت فكراً سامياً يتبع عاقلتي وعاطفة رقيقة تكتنف قلبي وسدما جميلا يدور نفسي .

ما أجهل الناس الذين يتوهمون ان المحبة تتولد بالمعاشرة الطويلة والمرافقة المستمرة . ان المحبة الحقيقية هي ابنة التفاهم الروحي وإن لم يتم هذا التفاهم بلحظة واحدة لا يتم بعام ولا بجيل كامل .

ورفعت سلمى رأسها ونظرت نحو الأفق البعيد حيث تلتقي خطوط صنين بأذيال الفضاء ، ثم قالت : لقد كنت لي بالأمس مثل أخ أقترب منه مطمئنة وأجلس بجانبه في ظلال والدي ، أما الآن فقد شعرت بوجود شيء أقوى وأعذب من العلاقة الأخوية ، قد شعرت بعاطفة غريبة مجردة عن كل علاقة . عاطفة قوية مخيفة لذيذة تملأ قلبي حزناً وفرحاً .

فأجبتها : أليست هذه العاطفة التي نخافها ونرتجف لمرورها في صدورنا جزءاً من الناموس الكلي الذي يسير القمر حول الأرض ، والأرض حول الشمس ، والشمس وما يحيط بها حول الله ؟

فوضعت يدها على رأسي وغرست أصابعها بشعري وقد تهلل وجهها وترقرقت الدموع في عينيها مثلما تلمع قطرات الندى على أطراف أوراق النرجس ، ثم قالت : مَنْ مِن البشر يصدق حكايتنا ؟ من منهم يصدق اننا في الساعة التي تجيء بين غروب الشمس وطلوع القمر قد قطعنا العقبات واجتزنا المعابر الكائنة بين الشك واليقين من منهم يعتقد أن نيسان الذي جمعنا لأول مرة هو الشهر الذي أوقفنا في قدس أقداس الحياة ؟

قالت هذه الكلمات ويدها ما برحت على رأسي المنحني ، ولو تخيرت في تلك الدقيقة لما فضلت تيجان الملوك وأكاليل الغار على تلك اليد الحريرية المتلاعبة بشعري. ثم أجبتها قائلا : ان البشر لا يصدقون حكايتنا لأنهم لا يعلمون بأن المحبة هي الزهرة الوحيدة التي تنبت وتنمو بغير معاونة الفصول ، ولكن هل هو نيسان الذي جمعنا لأول مرة ؟ وهل هي هذه الساعة التي أوقفتنا في قدس أقداس الحياة ؟ أما جمعت روحينا قبضة الله قبل ان تصيرنا الولادة أسيري الايام والليالي ؟ ان حياة الانسان يا سلمى لا تبتدىء في الرحم كما انها لا تنتهي أمـــام القبر ، وهذا الفضاء الواسع المملوء بأشعة القمر والكواكب لا يخلو من الأرواح المتعانقـة بالمحبة والنفوس المتضامنة بالتفاهم .

ورفعت سلمى يدها بلطف عن رأسي تاركة بين مغارس الشعر موجات كهربائية يتلاعب بها نسيم الليل فيزيدها عواً وحراكاً ، فأخذت تلك اليد براحتي نظير متعبد يتبرك بلثم المذبح ووضعتها على شفتي الملتهبتين وقبلتها قبلة طويلة عميقة خرساء تذيب بحرارتها كل ما في القلب البشري من الاحســاس وتنبه بعذوبتها كل ما في النفس الالهية من الطهر .

ومرت علينا سابحة كل دقيقة منها عام شغف ومحبة ، تساورنا سكينة الليل وتغمرنا أشعة القمر وتحيط بنا الأشجار والرياحين ، حتى إذا ما بلغنا تلك الحالة التي ينسى فيها

الانسان كل شيء سوى حقيقة الحب سمعنا وقع حوافر وهدير مركبة تقترب منا مسرعة ، فانتبهنا من تلك الغيبوبة اللذيذة وهبطت بنا اليقظة من عالم الاحلام إلى هذا العالم الواقف بحيرة بين الحيرة والشقاء ، فعرفنا ان الوالد الشيخ قد عاد من دار المطران فسرنا بين الاشجار ننتظر وصوله . وبلغت المركبة مدخل الحديقة فترجل فارس كرامه وسار نحونا منحني الرأس بطيء الحركة ، ونظير متعب رازح تحت حمل ثقيل تقدم نحو سلمى ووضع كلتا يديه على كتفيها وحدق الى وجهها طويلا كأنه يخاف ان تغيب صورتها عن عينيه الضئيلتين ، ثم انسكبت دموعه على وجنتيه المتجعدتين وارتجفت شفتاه بابتسامة محزنة وقال بصوت مخنوق : عما قريب يا سلمى ، عما قريب تخرجين من بين ذراعي والدك إلى ذراعي رجل آخر . عما قريب تسير بك سنة الله من هذا المنزل المنفرد إلى ساحة العالم الواسعة فتصبح هذه الحديقة مشتاقة إلى وطء قدميك ويصير والدك غريباً عنك . لقد لفظ القدر كلمته يا سلمى ، فلتبارككِ السماء وتحرسك !

سمعت سلمى هذه الكلمات فتغيرت ملامحها وجمدت عيناها كأنها رأت شبح الموت منتصباً أمامها ، ثم شهقت وتململت متوجعة كعصفور رماه الصياد فهبط على الحضيض مرتجفاً بآلامه ، وبصوت تقطعه الغصات العميقة صرخت قائلة : ماذا تقول ؟ ماذا تعني ؟ إلى أين تريد أن تبعث بي ؟ .

ثم شخصت به كأنها تريد أن تزيل بنظراتها الغلاف عن مخبآت صدره . وبعد دقيقة مثقلة بعوامل ذلك السكون الشبيه بصراخ القبور قالت متأوهة : قد فهمت الآن ... قد عرفت كل شيء ... ان المطران قد فرغ من حبك قضبان القفص الذي أعده لهذا الطائر المكسور الجناحين ، فهل هذه هي إرادتك يا والدي ؟ .

فلم يجبها بغير التنهدات العميقة ، ثم أدخلها الدار وأشعة الحنو تنسكب من ملامحه المضطربة ، فبقيت أنا واقفاً بين الأشجار والحيرة تتلاعب بعواطفي مثلما تتلاعب العواصف بأوراق الخريف ، ثم تبعتها الى القاعة . وكيلا أظهر بمظهر طفيلي يميل الى استطلاع الخصوصيات أخذت يد الشيخ مودعاً ونظرت الى سلمى نظرة غريق تلف نحو نجم لامع في قبة الفلك ، ثم خرجت دون ان يشعرا بخروجي ، ولكنني ما بلغت أطراف الحديقة حتى سمعت صوت الشيخ منادياً ، فالتفت واذا به يتبعني ، فعدت الى لقائه ، ولما دنوت منه أمسك بيدي وقال بصوت مرتعش : سامحني يا ابني فقد جعلت ختام ليلتك محتنفاً بالدموع ، ولكنك سوف تجيء الي دائماً ، أليس كذلك؟ ألا تزورني عندما يصير هذا المكان خالياً إلا من الشيخوخة المحزنة؟ ان الشباب الغض لا يستأنس بالشيخوخة الذابلة كما ان الصباح لا يلتقي بالمساء ، أما أنت فسوف تجيء إلي لتذكرني بأيام الصبا التي صرفتها بقرب أبيك وتميد على مسمعي أخبار

الحياة التي لم تعد تحسبني من أبنائها ، اليس كذلك ؟ ألا تزورني عندما تذهب سلمى وأصبح وحيداً منفرداً في هذا المنزل البعيد عن المنازل ؟

لفظ الكلمات الأخيرة بصوت منخفض متقطع ، ولما أخذت يده وهززتها صامتاً أحسست بقطرات من الدموع السخينة قد تساقطت على يدي من جفنه ، فارتعشت نفسي في داخلي وشعرت نحوه بعاطفة بنوة عذبة محزنة تتمايل بين ضلوعي وتتصاعد كالنهاث الى شفتيّ ثم تعود كالغصات الى أعماق قلبي . ولما رفعت رأسي ورأيت ان دموعه قد استدرت الدموع من أجفاني انحنى قليلاً ولمس بشفتيه المرتجفتين أعلى جبهتي ثم قال محولاً وجهه نحو باب المنزل : مساء الخير ... مساء الخير يا ابني .

ان دمعة واحدة تتلمع على وجنة شيخ متجعدة لهي أشد تأثيراً في النفس من كل ما تهرقه أجفان الفتيان .

ان دموع الشباب الغزيرة هي مما يفيض من جوانب القلوب المترعة ، اما دموع الشيوخ فهي فضلات العمر تتسكب من الأحداق ، هي بقية الحياة في الأجساد الواهنة . الدموع في أجفان الشبيبة كقطرات الندى على اوراق الوردة ،أما الدموع على وجنة الشيخوخة فأشبه بأوراق الخريف المصفرة التي تنثرها الرياح وتذريها عندما يقترب شتاء الحياة .

واختفى فارس كرائمه وراء مصراعي الباب وخرجت أنا

من تلك الحديقة وصوت سلمى يتموج في أذنيّ ، وجمالها يسير كالخيال أمام عينيّ ، ودموع والدها تجف ببطء على يديّ . خرجت من ذلك المكان خروج آدم من الفردوس ، ولكن حواء هذا القلب لم تكن بجانبي لتجعل العالم كله فردوساً . خرجت شاعراً بأن تلك الليلة التي ولدت فيها ثانية هي الليلة التي لمحت فيها وجه الموت لأول مرة .

كذا تحيي الشمس الحقول بحرارتها ، وبحرارتها تميتها .

بحيرة النـــار

●

كل ما يفعله الانسان سرّاً في ظلمة الليـل يظهره الانسان علناً في نور النهار . الكلمات التي تهمسها شفاهنا في السكينة تصير على غير معرفة منا حديثاً عمومياً ، والأعمال التي نحاول اليوم إخفاءها في زوايا المنازل تتجسم غـــداً وتلتصب في منعطفات الشوارع .

كذا أعلنت أشباح الدجى مقاصد المطران بولس غالب من اجتماعه بفارس كرامه ، وهكذا حملت دقائق الأثير أقواله وأحاديثه إلى احياء المدينة حتى بلغت مسمعي .

مـــا طلب المطران بولس غالب مقابلة فارس كرامه في تلك الليلة المقمرة ليفاوضه بشؤون الفقراء والمعوزين أو يخابره بأمور الأرامل والأيتام ، بـــل أحضره بمركبته الخصوصية الفخمة ليطلب منه ابنته سلمى عروساً لابن اخيه منصور بك غالب .

كان فارس كرامه رجلاً غنياً ولم يكن له وارث سوى ابنته سلمى ، وقد اختارها المطران زوجة لابن أخيه ، لا

لجمال وجهها ونبالة روحها بل لأنها غنية موسرة تكفل بأموالها العائلة مستقبل منصور بك وتساعده بأملاكها الواسعة على إيجاد مقام رفيع بين الخاصة والاشراف .

ان رؤساء الدين في الشرق لا يكتفون بما يحصلون عليه أنفسهم من المجد والسؤدد بل يفعلون كل ما في وسعهم ليجعلوا أنسباءهم في مقدمة الشعب ومن المستبدين به والمستدرين قواه وأمواله . ان مجد الأمير ينتقل بالارث إلى ابنه البكر بعد موته ، أما مجد الرئيس الديني فينتقل بالعدوى إلى الأخوة وأبناء الاخوة في حياته . وهكذا يصبح الأسقف المسيحي والامام المسلم والكاهن البرهمي كأفاعي البحر التي تقبض على الفريسة بمقابض كثيرة وتمتص دماءها بأفواه عديدة .

عندما طلب المطران بولس يد سلمى من والدها لم يجبه ذلك الشيخ بغير السكوت العميق والدموع السخينة . وأي والد لا يشق عليه فراق ابنته حتى ولو كانت ذاهبة إلى بيت جاره أو إلى قصر ملك ؟ أي رجل لا ترتعش أعماق نفسه بالفصات عندما يفصله ناموس الطبيعة عن الابنة التي لاعبها طفلة وهذبها صبية ورافقها امرأة ؟ ان مكآبة الوالدين لزواج الابنة يضارع فرحهما بزواج الابن ، لأن هذا يكسب العائلة عضواً جديداً أما ذاك فيسلبها عضواً قديماً عزيزاً — أجاب الشيخ طلب المطران مضطراً وانحنى أمام مشيئته قهراً عما في داخل نفسه من المقاومة ، وكان قد اجتمع بابن أخيه منصور بك وسمع الناس يتحدثون عنه

فعرف خشونته وطبعه وانحطاط أخلاقه ، ولكن أي مسيحي يقدر أن يقاوم أسقفاً في سوريا ويبقى محسوباً بين المؤمنين ، أي رجل يخرج عن طاعة رئيس دينه في الشرق ويظل كريماً بين الناس ؟ أتماند العين سهماً ولا تفقأ أو تناضل اليد سيفاً ولا تقطع ؟ وهب أن ذلك الشيخ كان قادراً على مخالفة المطران بولس والوقوف أمام مطامعه فهل تكون سمعة ابنته في مأمن من الظنون والتآويل، وهل يظل اسمها نقياً من أوساخ الشفاه والألسنة ؟ أو ليست جميع العناقيد العالية حامضة في شرع بنات آوى ؟

هكذا قبض القـــدر على سلمى كرامه وقادها عبدة ذليلة في موكب النساء الشرقيات التاعسات ، وهكذا سقطت تلك الروح النبيلة بالحبائل بينما كانت تسبح لأول مرة على أجنحة الحب البيضاء في فضاء تملأه أشعة القمر وتعطره رائحـــة الازاهر .

إن أموال الآباء تكون في أكثر المواطن مجلبة لشقاء البنين تلك الخزائن الواسعة التي يملأهـــا نشاط الوالد وحرص الأم تنقلب حبوساً ضيقة مظلمة لنفوس الورثة . ذلك الإله العظيم الذي يعبده الناس بشكل الدينار ينقلب شيطاناً مخيفاً يعذب النفوس ويميت القلوب . وسلمى كرامه هي كالكثيرات من بنات جنسها اللواتي يذهبن ضحية ثروة الوالد وأماني العريس . فلو لم يكن فارس كرامه رجلا غنياً لكانت سلمى اليوم حية تفرح مثلنا بنور الشمس .

مرّ اسبوع وحب سلمى يجالسني في المساء منشداً على مسمعي اغاني السعادة وينبهني عند الفجر ليريني معاني الحياة وأسرار الكيان. حبّ علوي لا يعرف الحسد لأنه غني ، ولا يوجع الجسد لأنه في داخل الروح . ميل قوي ينمر النفس بالقناعة . بجاعة عميقة تملأ القلب بالاكتفاء . عاطفة تولد الشوق ولكنها لا تثيره . فتون جعلني أرى الأرض نعيماً والعمر حلماً جميلاً . فكنت أسير صباحاً في الحقول وأرى في يقظة الطبيعة رمز الخلود ، وأجلس على شاطىء البحر وأسمع من أمواجه أغاني الأبدية ، وأمشي في شوارع المدينة وأجد في طلعات العابرين وحركات المشتغلين محاسن الحياة وبهجة العمران .

تلك أيام مضت كالأشباح واضمحلت كالضباب ولم يبق لي منها سوى الذكرى الأليمة ، فالعين التي كنت أرى بها جمال الربيع ويقظة الحقول لم تعد تحدق الى غير غضب العواصف ويأس الشتاء . والأذن التي كنت أسمع بها أغنية الأمواج لم تعد تصغي لغير أنة الأعماق وعويل الهاوية. والنفس التي كانت تقف متهيبة أمام نشاط البشر ومجد العمران لم تعد تشعر بغير شقاء الفقر وتعاسة الساقطين . فيا أحلى أيام الحب وما أعذب أحلامها وما أمرّ ليالي الحزن وما أكثر مخاوفها !

وفي نهاية الأسبوع وقد سكرت نفسي بخمرة عواطفي سرت مساء إلى منزل سلمى كرامه، ذلك الهيكل الذي أقامه الجمال

وقدسه الحب لتسجد فيه النفس مصلية ويركع القلب خاشعاً ، ولما بلغته ودخلت الى تلك الحديقة الهادئة أحسست بوجود قوة تستهويني وتستميلني وتبعدني عن هذا العالم وتدنيني ببطء إلى عالم سحري خال من العراك والجهاد ، ومثل متصوف جذبته السماء إلى مسارح الرؤيا وجدتني سائراً بين تلك الأشجار المتشابكة والزهور المتعانقة ، حتى إذا مـــا اقتربت من باب الدار التفت وإذا بسلمى جالسة على ذلك المقعد بظلال شجرة الياسمين حيث جلسنا منذ أسبوع في تلك الليلة التي اختارتها الآلهة من بين الليالي وجعلتها بدء سعادتي وشقائي ، فدنوت منها صامتاً فلم تتحرك ولم تتكلم كأنها علمت بقدومي قبل قدومي ولما جلست بجانبها حدقت إلى عينيّ دقيقة وتنهدت تنهدة طويلة عميقة ثم عادت فنظرت الى الشفق البعيد حيث تعبث أوائل الليل بأواخر النهار . وبعد هنيهة مملوءة بتلك السكينة السحرية التي تضم نفوسنا الى مواكب الارواح غير المنظورة ، حولت سلمى وجههـا نحوي وأخذت يدي بيد مرتعشة باردة وبصوت يشابه تأوه جائع لا يقوى على الكلام قالت :

انظر الى وجهي يا صديقي ، انظر الى وجهي جيداً وتأمله طويلا واقرأ فيـــه كل ما تريد ان تفهمه مني بالكلام ... انظر الى وجهي يا حبيبي ... أنظر جيداً يا أخي .

فنظرت إلى وجهها ، نظرت طويلاً ، فرأيت تلك الاجفان التي كانت منـــذ أيام قليلة تبتسم كالشفاه وتتحرك كأجنحـــة

الشحرور قد غارت وجمدت واكتحلت بخيالات التوجع والألم، رأيت تلك البشرة التي كانت بالأمس مثل ثنايا الزنبقة البيضاء الفرحة بقبلات الشمس ، قد اصفرت وذبلت وتبرقعت بنقاب القنوط . رايت الشفتين اللتين كانتا كزهرة اقاح تسيل عليها الحلاوة قد يبستا وصارتا كوردتين مرتجفتين أبقاهما الخريف على طرف الغصن . رأيت المنق الذي كان مرفوعاً كعمود العاج قد انحنى الى الأمام كأنه لم يعد قادراً على حمل ما يجول في تلافيف الرأس .

رأيت هذه الانقلابات الموجعة في ملامح سلمى، رأيتها جميعها ولكنها لم تكن في نظري الا كسحابة رقيقة توشح القمر فتزيد منظره حسناً وهيبة . ان الملامح التي تبيح أسرار الذات المعنوية تكسب الوجه جمالا وملاحة مهما كانت تلك الأسرار موجعة وأليمة . اما الوجوه التي لا تتكلم بصمتها عن غوامض النفس وخفاياها فلا تكون جميلة مهما كانت متناسقة الخطوط متناسبة الاعضاء . إن الكؤوس لا تستميل شفاهنا حتى يشف بلورها عن لون الخمر . فسلمى كرامه كانت في عشية ذلك النهار مثل كأس طافحة من خمرة علوية تمتزج بدقائقها مرارة العيش بحلاوة النفس . كانت تمثل على غير معرفة منها حياة المرأة الشرقية التي لا تغادر منزل والدها المحبوب إلا لتضع عنقها تحت نير زوجها الخشن ... ولا تترك ذراعي أمها الرؤوف إلا لتعيش في عبودية والدة زوجها القاسية .

وبقيت محدقـــاً الى وجه سلمى مصغياً لأنفاسها المتقطعة صامتاً، مفكراً شاعراً متألماً معها ولها ، حتى أحسست ان الزمن قد وقف عن مسيره والوجود قد انحجب واضمحل ولم أعد أرى سوى عينين كبيرتين محدقتين الى اعماقي ، ولا أشعر بغير يد باردة مرتعشة تضم يدي . ولم أفق من هذه الغيبوبة حتى سمعت سلمى تقول بهدوء:تعال نتحدث الآن يا صديقي . تعال نحاول تصوير المستقبل قبل ان يحمل علينا بمخاوفه واهواله . لقد ذهب والدي الى منزل الرجل الذي سيكون رفيقاً لي حتى القبر . قد ذهب الرجل الذي اختارته السماء سبباً لوجودي ليلتقي الرجل الذي انتقته الأرض سيداً على أيامي الآتية . ففي قلب هذه المدينة يجتمع الآن الشيخ الذي رافق شبيبتي بالشاب الذي سيرافق ما بقي لي من السنين ، وفي هذه الليلة يتفق الوالد والخطيب على يوم القران الذي سيكون قريباً مهما جعلاه بعيداً ، فما أغرب هذه الساعة وما أشد تأثيرها ! في مثل هذه الليلة من الأسبوع الغابر . وفي ظلال هذه الياسمينة قد عانق الحب روحي لأول مرة،بينما كان القدر يخط أول كلمة من حكاية مستقبلي في دار المطران بولس غالب . وفي هذه الساعة وقد جلس والدي وخطيبي ليضفرا إكليل زواجي ، أراك جالساً بجانبي واشعر بنفسك متموجة حولي كطائر ظامىء يحوم مرفرفـــاً فوق ينبوع ماء يخفره ثعبان جائع مخيف ، فما اعظم هذه الليلة وما اعمق اسرارها!

فأجبتها وقد تخيلت القنوط شبحاً مظلماً قابضا على عنق حبنا ليميته في طفوليته : سيظل هذا الطائر حائماً مرفرفاً فوق اليفوع حتى يضنيه العطش فيرديه او يقبض عليه الثعبان المخيف فيمزقه ويلتهمه .

فقالت متأثرة وصوتها يرتجف كالأوتار الفضية : لا ، لا يا صديقي ، فليبق هذا الطائر حياً ، ليبق هذا البلبل مغرداً حتى المساء ، حتى ينتهي الربيع حتى ينتهي العالم ، حتى تنتهي الدهور . لا تخرسه لأن صوته يحييني ، ولا توقف جناحيه لأن خفيفها يزيل الضباب عن قلبي .

فهمست متنهداً : الظمأ يقتله يا سلمى والخوف يميته .

فأجابت والكلام يتدفق بسرعة من بين شفتيها المرتعشتين : ان ظمأ الروح اعظم من ارتواء المادة ، وخوف النفس أحب من طمأنينة الجسد .. ولكن اسمع يا حبيبي ، اسمعني جيداً ، انا واقفة الآن في باب حياة جديدة لا أعرف عنها شيئاً . أنا مثل عمياء تتلمس بيدها الجدران مخافة السقوط . أنا جارية أنزلني مال والدي الى ساحة النخاسين فابتاعني رجل من بين الرجال . انا لا احب هذا الرجل لأنني اجهله ، وانت تعلم ان المحبة والجهالة لا تلتقيان ، ولكنني سوف أتعلم محبته . سوف أطيعه وأخدمه وأجعله سعيداً . سوف أهبه كل ما تقدر المرأة الضعيفة أن تهب الرجل القوي . أما أنت فلم تزل في ربيع العمر ، أمامك الحياة طريقاً واسعة

مفروشة بالأزهار والرياحين . سوف تخرج إلى ساحة العالم حاملاً قلبك مشعلاً متقداً . سوف تفكر بحرية وبحرية تتكلم وتفعل سوف تكتب اسمك على وجه الحياة لأنك رجل . سوف تعيش سيداً ، لأن فاقة والدك لا تجعلك عبداً، وأمواله لا تنزل بك الى سوق النخاسين حيث تباع البنات وتشرى . سوف تقترن بالصبية التي تختارها نفسك من بين الصبايا فتسكنها صدرك قبل أن تسكنها منزلك ، وتشاركها بأفكارك قبل أن تساهما الأيام والليالي .

وسكتت دقيقة كيما تسترجع أنفاسها ، ثم زادت بصوت تتابعه الغصات : ولكن أهنا تفرقنا سبل الحياة لتذهب بك إلى أبعاد الرجل وتسير بي إلى واجبات المرأة ؟ أهكذا ينقضي الحلم الجميل وتندثر الحقيقة العذبة ؟ أهكذا تبتلع اللجة نغمة الشحرور وتنثر الرياح أوراق الوردة وتسحق الأقدام كأس الخمر ؟ أباطلاً أوقفتنا تلك الليلة أمام وجه القمر وباطلاً ضمنا الروح في ظلال هذه الياسمينة؟ هل تسرعنا بالصعود نحو الكواكب فكلت أجنحتنا وهبطت بنا إلى الهاوية ؟ هل فاجأنا الحب نائماً فاستيقظ غاضباً ليعاقبنا ، أم هيجت أنفاسنا نسمات الليل فانقلبت ريحاً شديدة لتمزقنا وتجرفنا كالغبار إلى أعماق الوادي ؟ لم نخالف وصية ولم نذق ثمراً فكيف نخرج من هذه الجنة ؟ لم نتآمر ولم نتمرد فلماذا نهبط الى الجحيم ! لا لا وألف لا ولا. إن الدقائق التي جمعتنا هي أعظم من الأجيال ، والشعاع الذي أنار نفسينا هو أقوى

من الظلام ، فان فرقتنا العاصفة على وجه هذا البحر الغضوب فالأمواج تجمعنا على ذلك الشاطىء الهادىء ، وان قتلتنا هذه الحياة فذاك الموت يحيينا .

ان قلب المرأة لا يتغير مع الزمن ولا يتحول مع الفصول قلب المرأة ينازع طويلا ولكنه لا يموت . قلب المرأة يشابه البرية التي يتخذها الإنسان ساحة لحروبه ومذابحه ، فهو يقتلع أشجارها ويحرق أعشابها ويلطخ صخورها بالدماء ويغرس تربتها بالعظام والجماجم ، ولكنها تبقى هادئة ساكنة مطمئنة ويظل فيها الربيع ربيعاً والخريف خريفاً الى نهاية الدهور ... والآن قضي الأمر فماذا نفعل ؟ قل لي ماذا نفعل وكيف نفترق ومتى نلتقي ؟ هل نحسب الحب ضيفاً غريباً أتى به المساء وأبعده الصباح ؟ أنحسب هذه العاطفة النفسية حلماً أبانه الكرى ثم أخفته اليقظة ؟ أنحسب هذا الأسبوع ساعة سكر ما لبثت ان قضت بالصحو والانتباه ؟.. ارفع رأسك لأرى عينيك يا حبيبي افتح شفتيك لأسمع صوتك . تكلم ، اخبرني ، حدثني ، هل تذكرني بعد أن تفرق العاصفة سفينتي أيامنا ؟ هل تسمع حفيف أجنحتي في سكينة الليل ؟ هل تشعر بأنفاسي متموجة على وجهك وعنقك ؟ هل تصغي لتنهداتي متصاعدة بالتوجع منخفضة بالغصات ؟ وهل ترى خيالي قادماً مع خيالات الظلام مضمحلاً مع ضباب الصباح ؟ قل لي يا حبيبي ، قل لي ماذا تكون لي بعد ان كنت نوراً لعيني ونغمة لأذني وجناحاً لروحي ، ماذا تكون ؟

فأجبتها وحبـــات قلبي تذوب في عيني : سأكون لك يا سلمى مثلما تريدينني ان أكون .

فقالت : أريدك أن تحبني . أريدك أن تحبني إلى نهاية أيامي . أريدك أن تحبني مثلما يحب الشاعر أفكاره الحزنة . أريدك ان تذكرني مثلما يذكر المسافر حوض ماء هادىء رأى فيه خيال وجهه قبل ان يشرب من مائه . وأريدك أن تذكرني مثلما تذكر الأم جنيناً مات في أحشائها قبل ان يرى النور . وأريدك أن تفكر بي مثلما يفكر الملـــك الرؤوف بسجين مات قبل أن يبلغه عفوه . أريدك أن تكون لي أخاً وصديقاً ورفيقاً . أريدك أن تزور والدي في وحدته وتعزيه في انفراده ، لأنني عما قريب سأتركه وأصير غريبة عنه .

فأجبتها : سأفعل كل ذلك يا سلمى . سوف أجعل روحي غلافاً لروحك ، وقلبي بيتاً لجمالك ؛ وصدري قبراً لأحزانك. سوف أحبك يا سلمى محبة الحقول للربيع . سوف أحيا بك حياة الأزاهر بحرارة الشمس . سوف أترنم باسمك مثلما يترنم الوادي بصدى رنين الأجراس المتمايلة فوق كنائس القرى . سوف أصغي لأحاديث نفسك مثلما تصغي الشواطىء لحكاية الأمواج ... سأذكرك يا سلمى مثلما يذكر الغريب المستوحش وطنه المحبوب ، والفقير الجائع مائدة الطعام الشهية . والملك المخلوع ايام عزه ومجـــده ، والأسير الكئيب ساعات الحرية والطمأنينة . سوف أفكر بك مثلما يفكر الزارع بأغمـــار

٥٤ ـــــــ

جنباً لجنب ، مترنمين بين التلول والمنحدرات متبعين آثار اقدام الحياة المخططة بالبنفسج والاقحوان ، شاربين بقايا الامطار بكؤوس النرجس والزنبق . وفي الصيف سأتكىء والحب ساندين رأسينا إلى أغبار القش مفترشين لاعشاب ملتحفين السماء ساهرين مع القمر والنجوم . وفي الخريف سأذهب والحب إلى الكروم فنجلس بقرب المعاصر ناظرين إلى الاشجار وهي تخلع أثوابها المذهبة متأملين بأسراب الطيور الراحلة إلى الساحل . وفي الشتاء سأجلس والحب بقرب الموقد تاليين حكايات الاجيال مرددين أخبار الامم والشعوب . وفي أيام الشبيبة سيكون لي الحب مهذباً ، وفي الكهولة عضداً ، وفي الشيخوخة مؤنساً . سيظل الحب معي يا سلمى إلى نهاية العمر ، إلى ان يجيء الموت ، إلى أن تجمعني بك قبضة الله .

كانت الالفاظ تتصاعد مسرعة من أعماق نفسي كأنها شعلات من نار تنمو وتتطاير ثم تتبدد وتضمحل في زوايا تلك الحديقة ، وكانت سلمى مصغية والدموع تنهمر من عينيها كأن أجفانها شفاه تجيبني بالدموع على الكلام .

ان الذين لم يهبهم الحب أجنحة لا يستطيعون أن يطيروا إلى ما وراء الغيوم ليروا ذلك العالم السحري الذي طافت فيه روحي وروح سلمى في تلـــك الساعة المحزنة بأفراحها المفرحـــة بأوجاعها . ان الذين لم يتخذهم الحب أتباعاً لا يسمعون الحب متكلماً ، فهذه الحكاية لم تكتب لهم ؛ فهم وان فهموا معاني هذه الصفحات الضئيلة لا يمكنهم ان يروا ما

٥٦ ـــــــ

ثم تبعث الشقاء فارساً ليصطادها . في حنجرتها تبث نغمة الفرح ثم تغلق شفتيها بالحزن وتربط لسانها بالكآبة بأصابعك الخفية تمنطق باللذة أوجاعها وبأصابعك الظاهرة ترسم هالات الاوجـــاع حول ملذاتها . في مضجعها تخفي الراحة والسلامة وبجانب مضجعها تقيم المخاوف والمتاعب . بإرادتك تحيي ميولها ومن ميولها تتولد عيوبها وزلاتها . بمشيئتك تربها محاسن مخلوقاتك وبمشيئتك تنقلب محبتها للحسن مجاعة مهلكة . بشريعتك تزوج روحها من جسد جميل وبقضائك تجعل جسدها بعلا للضعف والهوان . أنت تسقيها الحياة بكأس الموت والموت بكأس الحياة . انت تطهرها بدموعها وبدموعها تذيبها . أنت تملأ جوفها من خبز الرجل ثم تملأ حفنة الرجل من حبات صدرها . أنت أنت يا رب قد فتحت عيني بالمحبة وبالمحبة أعميتني . أنت قبلتني بشفتيك وبيدك القوية صفعتني . انت زرعت في قلبي وردة بيضاء وحـــول هذه الوردة أنبتّ الاشواك والحسك . أنت أوقفت حاضري بروح فتى أحبه وبجسد رجل لا أعرفه . قيدت أيامي فساعدني لأكون قوية في هـــذا الصراع المميت واسعفني لأبقى أمينة وطاهرة حتى الموت . . . لتكن مشيئتك يا رب . ليكن اسمك مباركاً إلى النهاية .

وسكتت سلمى وظلت ملامحها تتكـــلم ، ثم حنت رأسها وأرخت ذراعيها وانخفض هيكلها كأن القوى الحيوية قد تركتها فبانت لناظري كغصن قصفته العاصفة وألقته إلى الحضيض

٥٨ ـــــــ

ويلتحف الفضاء . والساقيه التي نراها عند الصباح متلمعة كذوب اللجين ونسمعها مقرنة بأغنية الخلود نخالها في المساء مجرى دموع يتفجر من بين أضلع الوادي ونسمعها تندب وتنوح كالثكلى . ولبنان الذي ظهر منذ اسبوع بكل مظاهر الجلال والرونق عندما كان القمر بدراً والنفس راضية قد بان في تلك الليلة كئيباً منهوكاً مستوحشاً أمام قمر ضئيل ناقص هائم في عرض السماء وقلب خافق معتل في داخل الصدر .

وقفنا للوداع وقد وقف بيننا الحب واليأس شبحين هائلين، هذا باسط جناحيه فوق رأسينا وذاك قابض بأظافره على عنقينا . هذا يبكي مرتاعاً وذاك يضحك ساخراً . ولما أخذت يد سلمى ووضعتها على شفتي متبركاً دنت مني ولثمت مفرق شعري ، ثم عادت فارتمت على المقعد الخشبي وأطبقت أجفانها وهمست ببطء: اشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة المتكسرة.

انفصلت عن سلمى وخرجت من تلك الحديقة شاعراً بنقاب كثيف يوشي مداركي الحسية مثلما يغمر الضباب وجه البحيرة . ومرت وأخيلة الاشجار القائمة على جانبي الطريق تتحرك أمامي كأنها أشباح قد انبثقت من شقوق الأرض لتخيفني ، وأشعة القمر الضعيفة ترتعش بين الغصون كأنها سهام دقيقة تريشها أرواح الجان السابحة بالفضاء نحو صدري ، والسكينة العميقة تخيم علي كأنها أكف سوداء ثقيلة القتها الظلمة على جسدي.

كل ما في الوجود وكل معنى في الحياة وكل سر في النفس

٦٠ ـــــــ

أمام عرش الموت

●

إنما الزيجة في أيامنا هذه تجارة مضحكة مبكية يتولى أمورها الفتيان وآباء الصبايا ، الفتيان يربحون في أكثر المواطن والآباء يخسرون دائماً ، أما الصبايا المنتقلات كالسلع من منزل إلى آخر فتزول بهجتهن ، وتنظير الأمتعة العتيقة يصير نصيبهن زوايا المنازل حيث الظلمة والفناء البطيء .

إن المدنية الحاضرة قد أنمت مدارك المرأة قليلا ولكنها أكثرت أوجاعها بتعميم مطامع الرجل . كانت المرأة بالأمس خادمة سعيدة فصارت اليوم سيدة تعسة . كانت بالامس عمياء تسير في نور النهار فأصبحت مبصرة تسير في ظلمة الليل . كانت جميلة بجهلها فاضلة ببساطتها قوية بضعفها فصارت قبيحة بتفننها سطحية بمداركها بعيدة عن القلب بمعارفها . فهل يجيء يوم يجتمع في المرأة الجمال بالمعرفة ، والتفنن بالفضيلة ، وضعف الجسد بقوة النفس ؟ انا من القائلين ان الارتقاء الروحي سنة في البشر ، والتقرب من الكمال شريعة بطيئة لكنها فعالة فاذا كانت المرأة قد ارتقت بشيء وتأخرت بشيء آخر فلأن العقبات التي تبلقنا قمة الجبل لا تخلو من مكامن اللصوص ،

وكهوف الذئاب . ففي هذا الجبل الشبيه بالغيبوبة التي تتقدم اليقظة — في هذا الجبل القابض بكفيه على تراب الاجيال الغابرة وبزور الاجيال الآتية — في هذا الجبل الغريب بميوله وأمانيه لا تخلو مدينة من امرأة ترمز بوجودها عن ابنة المستقبل . وسلمى كرامه كانت في بيروت رمز المرأة الشرقية العتيدة ، ولكنها كالكثيرين الذين يعيشون قبل زمانهم قد ذهبت ضحية الزمن الحاضر ، ونظير زهرة اختطفها تيار النهر قد صارت قهراً في موكب الحياة نحو الشقاء .

وتزوج منصور بك غالب من سلمى فسكنا معاً في منزل فخم قائم على شاطىء البحر في رأس بيروت حيث يقطن وجهاء القوم والاغنياء وبقي فارس كرامه وحده في ذلك البيت المنفرد بين الحدائق والبساتين انفراد الراعي بين أغنامه ومضت أيام العرس وانقضت ليالي الأفراح ، ومر الشهر الذي يدعوه الناس عسلا تاركا وراءه شهور الخل والعلقم مثلما تترك أمجاد الحروب جماجم القتلى في البرية البعيدة ... ان بهرجة الاعراس الشرقية تصعد بنفوس الفتيان والصبايا صعود النسر الى ما وراء الغيوم ثم تهبط بهم هبوط حجر الرحى الى اعماق اليم ، بل هي مثل آثار الأقدام على رمال الشاطىء لا تلبث أن تمحوها الأمواج.

وذهب الربيع وتلاه الصيف وجاء الخريف ويحبق لسلمى تتدرج من شغف فتى في صباح العمر بامرأة حسناء إلى نوع من تلك العبادة الخرساء التي يشعر بها الصبي اليتيم نحو

روح أمه الساكنة في الأبدية ، فالصبابة التي كانت تملك كليتي قد تحولت إلى كآبة عمياء لا ترى غير نفسها ، والولع الذي كان يستدر الدموع من عيني قد انقلب ولهاً يستقطر الدم من قلبي ، وأنة الحنين التي كانت تملأ ضلوعي أصبحت صلاة عميقة تقدمها روحي في السكينة أمام السماء مستمدة السعادة لسلمى والغبطة لبعلها والطمأنينة لوالدها ، ولكن باطلاً كنت أشفق وابتهل وأصلي لأن تعاسة سلمى كانت علة في داخل النفس لا يشفيها سوى الموت . أما بعلها فكان من أولئك الرجال الذين يحصلون بغير تعب على كل ما يجعل الحياة هنيئة ولا يقنعون بل يطمحون دائماً إلى ما ليس لهم ، وهكذا يظلون معذبين بمطامعهم إلى نهـــاية أيامهم . وباطلاً كنت أرجو الطمأنينة لفارس كرامه لأن صهره لم يستلم يد ابنته ويحصل على أموالها الطائلة حتى نسيه وهجره بل صار يطلب حتفه توصلا إلى ما بقي من ثروته .

كان منصور بك شبيهاً بعمه المطران بولس غالب ، وكانت أخلاقه كأخلاقه ، ونفسه صورة مصغرة لنفسه ، ولم يكن الفرق بينهما إلا بما يفرق الرياء عن الانحطاط . كان المطران يبلغ أمانيه مستتراً بأثوابه البنفسجية ويشبع مطامعه محتمياً بالصليب الذهبي المعلق على صدره ، أما ابن أخيه فكان يفعل كل ذلك جهاراً وعنوة . كان المطران يذهب إلى الكنيسة في الصباح ويصرف ما بقي من النهار منتزعاً الأموال من الأرامل

٦٤ ـــــــ

ولكن أليست المرأة الضعيفة هي رمز الأمة المظلومة ؟ أليست المرأة المتوجعة بين ميول نفسها وقيود جسدها هي كالأمة المتعذبة بين حكامها وكهانها ؟ أو ليست العواطف المخفية التي تذهب بالصبية الجميلة الى ظلمة القبر هي كالعواصف الشديدة التي تغمر حياة الشعوب بالتراب ؟ ان المرأة من الأمة بمنزلة الشعاع من السراج ، وهل يكون شعاع السراج ضئيلا اذا لم يكن زيته شحيحاً ؟

* * *

مضت ايام الخريف وعرت الرياح الأشجار متلاعبة بأوراقها الصفراء مثلما تداعب الأنواء زبد البحر ، وجاء الشتاء باكياً منتحباً وأنا في بيروت ولا رفيق لي سوى أحلام تتصاعد بنفسي تارة فتبلغها الكواكب ، وتنخفض بقلبي طوراً فتلحده بجوف الأرض .

ان النفس الكئيبة تجد راحة بالعزلة والانفراد فتهجر الناس مثلما يبتعد الغزال الجريح عن سربه ويتوارى في كهفه حتى يبرأ او يموت .

فذات يوم سمعت باعتلال فارس كرامه ، فتركت وحدتي وذهبت لعيادته ماشياً على ممر منفرد بين أشجار الزيتون المتلمعة اوراقها الرصاصية بقطرات المطر ، متنحياً عن الطريق العمومية حيث تزعج ضجة المركبات سكينة الفضاء .

٦٦ ـــــــ

وبعد سكوت عميق أرجعنا بتأثيراته السحرية الى تلك الساعات التي سكرنا فيها من خمرة الآلهة مسحت سلمى دموعها بأطراف انامل وقالت متحسرة : أرأيت كيف تبدلت الأيام ؟ أرأيت كيف أضلنا الدهر فسرنا مسرعين الى هذه الكهوف المفزعة ؟ في هذا المكان جمعنا الربيع في قبضة الحب ، وفي هذا المكان يجمعنا الآن الشتاء امام عرش الموت ، فما أبهى ذلك النهار وما أشد ظلمة هذا الليل .

قالت هذه الكلمات وقد ابتلعت الغصات أواخرها ثم عادت فسترت وجهها بيديها كأن ذكرى الماضي قد تجسدت ووقفت أمامها فلم تشأ ان تراها . فوضعت يدي على شعرها قائلا : تعالي يا سلمى ، تعالي نلتصب كالابراج أمام الزوبعة . هلمي نقف كالجنود أمام الأعداء متلقين شفار السيوف بصدورنا لا بظهورنا ، فان صرعنا نموت كالشهداء وان تغلبنا نعيش كالأبطال . . . ان عذاب النفس بثباتها امام المصاعب والمتاعب لهو اشرف من تقهقرها الى حيث الامن والطمأنينة . فالفراشة التي تظل مرفرفة حول السراج حتى تحترق هي أسمى من الخلد الذي يعيش براحة وسلامة في نفقه المظلم . والنواة التي لا تحتمل برد الشتاء وثورات العناصر لا تقوى على شق الأرض ولن تفرح بجمال نيسان . . . هلمي نسر يا سلمى بقدم ثابتة على هذه الطريق الوعرة. رافعين اعيننا نحو الشمس كيلا نرى الجماجم المطروحة بين الصخور ، والافاعي المتسابة بين الاشواك ، فان اوقفنا الخوف في منتصف الطريق

٦٨ ـــــــ

وتحرك الشيخ إذ ذاك بين اللحف ومد يده النحيلة نحو سلمى ، وبصوت أودعه كل ما في قلب الأب من الرقة والرأفة وكل ما في الصدر العليل من السقم والألم قال : ضعي يدك في يدي يا سلمى .

فمدت يدها وألقتها بين أصابعه فضمها بلطف ثم زاد قائلاً : لقد شبعت من السنين يا ولدي ، قد عشت طويلاً وتلذذت بكل ما تثمره الفصول وتمتعت بكل ما تبرزه الأيام والليالي ، قد لاحقت الفراش صبياً وعانقت الحب فتى وجمعت المال كهلاً ، وكنت في جميع هذه الأدوار سعيداً مغتبطاً . فقدت أمك يا سلمى قبل ان تبلغي الثالثة ولكنها أبقتك لي كنزاً ثميناً ، فكنت تنمين بسرعة نمو الهلال وتنعكس على وجهك ملامح أمك مثلما تنعكس أشعة النجوم في حوض ماء هادىء ، وتظهر أخلاقها ومزاياها بأعمالك وأقوالك ظهور الحلى الذهبية من وراء النقاب الرقيق ، فتعزيت بك يا ولدي لأنك كنت مثلها جميلة وحكيمة . . . والآن قد صرت شيخاً طاعناً وراحة الشيوخ بين أجنحة الموت الناعمة ، فتعزي يا ولدي لأنني بقيت لأراك امرأة كاملة ، وافرحي لأنني سأبقى بك حياً بعد موتي . إن ذهابي الآن هو مثل ذهابي غداً او بعده ، لأن ايامنا مثل أوراق الخريف ، تتساقط وتتبدد امام وجه الشمس فان أسرعت بي الساعات إلى الأبدية فلأنها علمت ان روحي قد اشتاقت الى لقاء أمك.

٧٠ ـــــــ

أمـــه يفقد صدراً يسند اليه رأسه ويداً تباركه وعينـــاً تحرسه ...

كل شيء في الطبيعة يرمز ويتكلم عن الامومة ، فالشمس هي أم هذه الأرض ترضعها حرارتها وتحتضنها بنورهـــا ولا تغادرها عند المساء إلا بعد ان تنومها على نغمة أمواج البحر وترنيمة العصافير والسواقي ، وهذه الأرض هي ام للاشجار والأزهار تلدها وترضعها ثم تفطمها . والأشجار والأزهـار تصير بدورها أمهات حنونات للأثمار الشهية والبزور الحية . وأم كل شيء في الكيان هي الروح الكلية الأزلية الأبديـــة المملوءة بالجمال والمحبة .

وسلمى كرامه لم تكن تعرف امها لأنها ماتت وهي طفلة، وقد شهقت متأثرة عندما رأت رسمها وناداتها : يا أماه ، فسر إرادتها ، لأن لفظة الأم تختبىء في قلوبنا مثلما تختبىء النواة في قلب الأرض ، وتنبثق من بين شفاهنـــا في ساعات الحزن والفرح كما يتصاعـــد العطر من قلب الوردة في الفضاء الصافي والممطر .

كانت سلمى تحدق الى رسم أمها ثم تقبله بلهفة ثم تلزه إلى صدرها الحفوق ثم تتأوه متنهدة ومع كل تنهدة تفقد جزءاً من قواها ، حتى إذا ما وهت الحياة في جسدها النحيل هـوت وسقطت بجانب سرير أبيها ، فوضع كلتا يديه على رأسهـــا قائلا : قد أريتك يا ولدي شبح أمك على صفحة من الورق ، فاصغي إلي لأسمعك أقوالها .

٧٢ ـــــــ

قالت هذا وحولت عينيها الدامعتين نحـــوي وأمسكت بيمينها طرف ثوبي ثم قالت : ليس لي غير هـــذا الصديق يا والدي ولن يبقى لي سواه إذا ما تركتني ، فهل أتعزى به وهو متعذب مثلي ؟ هل يتعزى كسير القلب بالقلب الكسير ؟ ان الحزينة لا تتصبر بحزن جارتها كما ان الحمامة لا تطير بأجنحة مكسورة . هو رفيق لنفسي ولكنني قـــد أثقلت عاتقه بأشجاني حتى لويت ظهره وسملت عينيه بعبراتي فلم يعد يرى غير الظلمة . هو أخ أحبه ويحبني ولكنه مثل جميع الأخوة يشترك بالمصيبة ولا يخففها ، ويساعد بالبكاء فيزيد الدمع مرارة والقلب احتراقاً .

كنت اسمع سلمى متكلمة وعواطفي تنمو وصدري يضيق حتى شعرت بأن أضلعي تكاد تتفجر حناجر وفوهات ، أما الشيخ فكان ينظر اليها وجسده المهزول يهبط ببطء بين الوسائد والمساند ، ونفسه المتعبة ترتجف كشعلة السراج امام الريح ، ثم بسط ذراعيه وقال بهدوء : دعيني أذهب بسلام يا ولدي ، لقد لمحت عيناي مـــا وراء الغيوم ، فلن أحولها نحو هذه الكهوف . دعيني أطير فقد كسرت بأجنحتي قضبان هذا القفص ... قد نادتني أمك يا سلمى فلا توقفيني ... ها قـــد طابت الريح وتبدد الضباب عن وجـــه البحر فرفعت السفينة شراعها وتأهبت للسير فلا توقفيها ولا تنزعي دفتها . دعي جسدي يرقد مع الذين رقدوا ودعي روحي تستيقظ لأن الفجر قد لاح والحلم قد انتهى ... قبلي روحي بروحك ... قبليني

٧٤ ـــــــ

تدعوا كاهناً إلى جانب فراشي لان تعـــازيه لا تكفر عن ذنوبي ان كنت خاطئاً ، ولا تسرع بي الى الجنة ان كنت بارّاً . ان ارادة البشر لا تغير مشيئة الله كما ان المنجمـــين لا يحولون مسير النجوم . اما بعد موتي فليفعل الأطباء والكهان ما شاؤوا ، فاللجة تنادي اللجة امـــا السفينة فتظل سائرة حتى تبلغ الساحل ...

* * *

عندما انتصف ذلك الليل المخيف فتح فارس كرامه عينيه الغارقتين في ظلمة النزع ، فتحهما لآخر مرة ، وحولهـما نحو ابنته الجاثية بجانب مضجعه ، ثم حاول الكلام فلم يستطع لأن الموت كان قد تشرب صوته فخرجت هذه الألفاظ لهاثاً عميقاً من بين شفتيه : ها قد ذهب الليل ... وجاء الصباح... يا سلمى . يا . يا سلمى ...

ثم نكس رأسه وابيض وجهه وابتسمت شفتـــاه وأسلم الروح .

ومدت سلمى يدها ولمست يد والدها فوجدتهـا باردة كالثلج ، فرفعت رأسها ونظرت اليه فرأت وجهه مبرقعـاً بنقاب الموت ، فجمدت الحياة في جسدها وجفت الدموع في محاجرها ، فلم تتحرك ولم تصرخ ولم تتأوه ، بل بقيت محدقة اليه بعينين جامدتين كعيني التمثال ، ثم تراخت أعضاؤها مثلما تتراخى طيات الثوب البليل ، وهبطت حتى لمست جبهتهـا

٧٦ ـــــــ

بين عشتروت والمسيح

●

بين تلك البساتين والتلول التي تصل أطراف بيروت بأذيال لبنان يوجد معبد صغير قديم العهـــد محفور في قلب صخرة بيضاء قائمة بين أشجار الزيتون واللوز والصفصاف . ومع ان هذا المعبد لا يبعد أكثر من نصف ميـــل عن طريق المركبات فقد قل من عرفه من محبي الآثار والخرائب القديمة ، فهو مثل أشياء كثيرة خطيرة في سوريا مختبىء وراء ستائر الاهمال ، فكأن الاهمال قد أبقاه محجوباً عن عيون الآثريين ليجعله خلوة لنفوس المتعبين ومزاراً للمحبين المستوحشين .

والداخل الى هذا المعبد العجيب يرى على الجدار الشرقي منه صورة فينيقية الشواهد والبينات محفورة في الصخر قـــد محت أصابع الدهر بعض خطوطها ولونت الفصول معالمها ، وهي تمثل عشتروت ربة الحب والجمـــال جالسة على عرش فخم ومن حولها سبع عذارى عاريات واقفـــات بهيئات مختلفة ، فالواحدة منهن تحمل مشعلا والثانية قيثارة والثالثة مبخرة والرابعة جرة من الخمر والخـــامسة غصناً من الورد

والسادسة إكليلا من الغار والسابعة قوساً وسهاماً ، وجميعهن ناظرات الى عشتروت وعلى وجوههن سماء الخضوع والامتثال.

وعلى الجدار الثاني صورة أخرى أحدث عهداً وأكثر ظهوراً تمثل يسوع الناصري مصلوباً والى جانبه أمه الحزينة ومريم المجدلية وامرأتان ثانيتان تنتحبان . وهذه الصورة البيزنطية الأسلوب والقرائن تدل على كونها حفرت في القرن الخامس او السادس للمسيح .

وفي الجدار الغربي كوتان مستديرتان يدخل منهما شعاع الشمس عند أصيل النهار وينسكب على الصورتين فتظهران كأنهما قد طليتا بماء الذهب .

وفي وسط المعبد حجر من الرخام مربع الشكل على جوانبه نقوش ووسامات قديمة الطراز قد انحجب بعضها تحت كتلات متحجرة من الدماء تدل على أن الأقدمين كانوا ينحرون ذبائحهم على هذا الحجر ويصبون فوقه قرابين الخمر والعطر والزيت .

ولم يكن في هذا المعبد الصغير شيء آخر سوى سكينة عميقة تعانق النفس وهيبة سحرية تبيح بتموجاتها أسرار الآلهة وتتكلم بلا نطق عن مآتي الأجيال الغابرة ومسير الشعوب من حالة الى حالة ومن دين الى دين ، وتستميل الشاعر الى عالم بعيد عن هذا العالم ، وتقنع الفيلسوف بأن الانسان مخلوق دين يشعر بما لا يراه ويتخيل ما لا تقع عليه حواسه ، فيرسم لشعوره رموزاً تدل بمعانيها على خفايا نفسه

ويجسم خياله بالكلام والانغـــام والصور والتماثيل التي تظهر بأشكالها أقدس ميوله في الحياة واجل مشتهياته بعد الموت .

في هذا الهيكل المجهول كنت ألتقي سلمى كرامه مرة في الشهر فنصرف الساعات الطوال ناظرين إلى الصورتين الغريبتين مفكرين بفق الأجيال المصلوب فوق الجلجلة مستحضرين إلى مخيلتينا أشباح الفتيان والصبايا الفينيقيين الذين عاشوا وعشقوا وعبدوا الجمال بشخص عشتروت فحرقوا البخور امام تماثيلها وهرقوا الطيوب على مذابحها ثم طوتهم الارض فلم يبق منهم سوى اسم تردده الأيام أمام وجه الأبدية .

لم يصعب علي الآن ان أدون بالكلام ذكرى تلك الساعات التي كانت تجمعني بسلمى ، تلك الساعات العلوية المكتنفة باللذة والألم ، والفرح والحزن ، والأمل واليأس ، وكل ما يجعل الانسان انساناً والحياة لغزاً ابدياً . ولكن كم يصعب علي أن أذكرها ولا أرسم بالكلام الضئيل خيالاً من أخيلتها ليبقى مثلاً لأبناء الحب والكآبة .

كنا نختلي في ذلك الهيكل القديم فنجلس في بابه ساندين ظهرينا إلى جداره مرددين صدى ماضينا مستقصين ما تي حاضرنا خائفين مستقبلنا . ثم نتدرج إلى اظهار ما في أعماق نفسينا فيشكو كل منا لوعته وحرقة قلبه ومـــا يقاسيه من الجزع والحسرة ، ثم يصبّر واحدنا الآخر باسطاً أمامه كل ما في جيوب الأمل من الأوهام المفرحة والأحلام العذبة ، فيهدأ

روعنا وتجف دموعنا وتنفرج ملامحنا ، ثم نبتسم متناسيين كل شيء سوى الحب وافراحه ، منصرفين عن كل أمر إلا النفس وميولها ، ثم نتعانق فنذوب شغفاً وهياماً ، ثم تقبّل سلمى مفرق شعري بطهر وانعطاف فتملأ قلبي شعاعاً ، وأقبل أطراف اصابعها البيضاء فتغمض عينيهـا وتلوي عنقها العاجي وتتورد وجنتاهـــا باحمرار لطيف يشابه الأشعة الأولى التي يلقيها الفجر على جباه الروابي . ثم نسكت وننظر طويلاً نحو الشفق البعيد حيث الغيوم المتلونة بأنوار المغرب البرتقالية .

ولم تكن اجتماعاتنا مقتصرة على مبادلة العواطف وبث الشكوى ، بل كنا ننتقل على غير معرفة منا الى العموميات فنتبادل الآراء والأفكار في شؤون هذا العالم الغريب ونتباحث في مرامي الكتب التي كنا نقرأها ذاكرين حسناتها وسيئاتهـا وما تنطوي عليه من الصور الخيالية والمبادىء الاجتماعية ، فتتكلم سلمى عن منزلة المرأة في الجامعة البشرية وعن تأثير الأجيال الغابرة في أخلاقها وميولها وعن العلاقة الزوجية في أيامنا هذه وما يحيط بها من الأمراض والمفاسد . واني أذكر قولها مرة : ان الكتّاب والشعراء يحاولون إدراك حقيقة المرأة ولكنهم للآن لم يفهموا اسرار قلبها ومخبآت صدرها لأنهم ينظرون اليها من وراء نقاب الشهوات فلا يرون غير خطوط جسدها او يضمونها تحت مكبرات الكره فلا يجدون فيهـا غير الضعف والاستسلام .

وقولها لي مرة أخرى وقد أشارت بيدها إلى الرسمين المحفورين على جدران الهيكل : في قلب هذه الصخرة قد نقشت الأجيال رمزين يظهران خلاصة ميول المرأة ويستجليان غوامض نفسها المراوحة بين الحب والحزن ، بين الانعطاف والتضحية ، بين عشتروت الجالسة على العرش ومريم الواقفة أمام الصليب ... ان الرجل يشتري المجد والعظمة والشهرة ولكن هي المرأة التي تدفع الثمن .

ولم يدر باجتماعاتنا السرية أحد سوى الله وأسراب العصافير المتطايرة بين تلك البساتين ، فسلمى كانت تجيء بمركبتها الى المكان المدعو بحديقة الباشا ثم تسير الهوينا على الممرات المنفردة حتى تبلغ المعبد الصغير فتدخله مستندة إلى مظلتها وعلى وجهها لوائح الأمن والطمأنينة فتجدني منتظراً مترقباً مشتاقاً بكل ما في الشوق من الجوع والعطش .

ولم تخف قط عين الرقيب ولا شعرنا بوخز الضمير ، لأن النفس اذا تطهرت بالنار واغتسلت بالدموع تترفع عما يدعوه الناس عيباً وعاراً وتتحرر من عبودية الشرائع والنواميس التي سنتها التقاليد لعواطف القلب البشري وتقف برأس مرفوع أمام عروش الآلهة .

ان الجامعة البشرية قد استسلمت سبعين قرناً الى الشرائع الفاسدة فلم تعد قادرة على إدراك معاني النواميس العلوية الأولية الخالدة . وقد تعودت بصيرة الانسان النظر الى ضوء

الشموع الضئيلة فلم تعد تستطيع ان تحدق الى نور الشمس . لقد توارثت الأجيال الأمراض والعاهات النفسية بعضها عن بعض حتى أصبحت عمومية ، بل صارت من الصفات الملازمة للانسان فلم يعد الناس ينظرون اليهـــا كعاهات وأمراض بل يعتبرونها كخلال طبيعية نبيلة أنزلها الله على آدم ، فإذا مـــا ظهر بينهم فرد خال منها ظنوه ناقصاً محروماً من الكمالات الروحية .

أما الذين سيعيبون سلمى كرامه محاولين تلويث اسمهـا لأنها كانت تترك منزل زوجها الشرعي لتختلي برجل آخر فهم من السقماء الضعفاء الذين يحسبون الأصحاء مجرمين وكبار النفوس متمردين . بـــل هم كالحشرات التي تدب في الظلمة وتخشى الخروج إلى نور النهار كيلا تدوسها أقدام العابرين .

ان السجين المظلوم الذي يستطيع ان يهدم جدران سجنه ولا يفعل يكون جباناً . وسلمى كرامه كانت سجينة مظلومة ولم تستطع الانعتاق ، فهل تلام لأنها كانت تنظر من وراء نافذة السجن الى الحقول الخضراء والفضـــاء الواسع ؟ هل يحسبها الناس خائنة لأنهـا كانت تجيء من منزل منصور بك غالب لتجلس بجانبي بين عشتروت المقدسة والجبـــار المصلوب ؟ ليقل الناس مـــا شاؤوا ، فسلمى قد اجتازت المستنقعات التي تغمر أرواحهم وبلغت ذلك العالم الذي لا يبلغه عواء الذئاب ونحيب الأفاعي . وليقل الناس ما أرادوا

عني ، فالنفس التي شاهدت وجه الموت لا تذعرها وجوه اللصوص ، والجندي الذي رأى السيوف محتبكة فوق رأسه وسواقي الدماء تجري تحت قدميه لا يحفل بالحجارة التي يرشقه بها صبيان الأزقة .

التضحيـة

•

ففي يوم من اواخر حزيران وقد ثقلت وطـــأة الحر في السواحل وطلب الناس أعالي الجبال ، سرت كعادتي نحو ذلك المعبد واعداً نفسي بلقاء سلمى كرامـه حاملا بيدي كتاباً صغيراً من الموشحات الاندلسية التي كانت في ذلك العهد ولم تزل الى الآن تستميل روحي .

بلغت المعبد عند الاصيل فجلست ارقب الطريق المنسابة بين اشجار الليمون والصفصاف ، وانظر من وقت الى آخر الى وجه كتابي هامساً في مسامع الاثير ابيات تلك الموشحات التي تستهوي القلب برشاقة تراكيبها ورنة اوزانها ، وتعيد الى النفس ذكرى أمجاد الملوك والشعراء والفرسان الذين ودعوا غرناطـة وقرطبـة واشبيلية تاركين في قصورها ومعاهدها وحدائقها كل ما في ارواحهم من الآمـــال والميول ثم توارروا وراء حجب الدهور والدمع في اجفانهم والحسرة في أكبادهم.

وبعد ساعة التفت فاذا بسلمى تيس بقدهـا النحيل بين الاشجار المتشابكة وتقترب نحوي مستندة الى مظلتها كأنها

تحمل كل ما في العالم من الهموم والمتاعب . ولما بلغت باب الهيكل وجلست بقربي نظرت الى عينيها الكبيرتين فرأيت فيهما معاني وأسراراً جديدة غريبة توحي التحذر والانتباه وتثير حب الاستطلاع والاستقصاء .

وشعرت سلمى بما يجول في خاطري فلم تشأ أن يطول الصراع بين ظنوني وهواجسي ، فوضعت يدها على شعري وقالت : اقترب مني ، اقترب مني يا حبيبي ، اقترب ودعني أزود نفسي منك ، فقد دنت الساعة التي تفرقنا الى الأبد .

فصرخت قائلاً : ماذا تعنين يا سلمى ، وأية قوة تستطيع أن تفرقنا الى الأبد ؟

فأجابت : ان القوة العمياء التي فرقتنا بالأمس ستفرقنا اليوم . القوة الخرساء التي تتخذ الشرائع البشرية ترجماناً عنها قد بنت بأيدي عبيد الحياة حاجزاً منيعاً بيني وبينك . القوة التي أوجدت الشياطين وأقامتهم أولياء على أرواح الناس قد حتمت علي ان لا أخرج من ذلك المنزل المبني من العظام والجماجم .

فسألتها قائلاً : هل علم زوجك باجتماعاتنا فصرت تخشين غضبه وانتقامه ؟

فأجابت إن زوجي لا يحفل بي ولا يدري كيف أصرف أيامي ، فهو مشغول عني بأولئك الصبايا المسكينات اللواتي تقودهن الفاقة الى أسواق النخاسين فيتعطرن ويكتحلن ليبعن أجسادهن بالخبز المعجون بالدماء والدموع .

فقلت : إذاً ماذا يصدك عن المجيء الى هـــذا المعبد والجلوس بجانبي أمام هيبة الله وأشباح الأجيال ؟ هل مالت النظر الى خفايا نفسي فطلبت روحك الوداع والتفريق ؟

فأجابت والدمع يراود اجفانها : لا يا حبيبي . إن روحي لم تطلب فراقك لأنك شطرها ، ولا ملت عيناي النظر اليك لأنك نورهما . ولكن إذا كان القضاء قد حكم علي أن أسير على عقبات الحياة مثقلة بالقيود وبالسلاسل . فهل أرضى أن يكون نصيبك من القضاء مثل نصيبي ؟

فقلت : تكلمي يا سلمى واخبريني عـــن كل شيء ولا تتركيني ضائعاً بين هذه المعميات .

فأجابت : لا أقدر أن أقول كل شيء ، لأن اللسان الذي أخرسته الأوجاع لا يتكلم ، والشفاه التي ختم عليها اليأس لا تتحرك ، وكل ما أقدر أن أقوله لك هو أني أخاف عليك من الوقوع في شرك الذين نصبوا لي الحبائل واصطادوني .

فقلت : ماذا تعنين يا سلمى ومن هم الذين تخـــافين عليّ منهم ؟

فسترت وجهها بيديها وتأوهت ملتاعة ثم قالت مترددة : ان المطران بولس غالب قد صار يعلم بأنني أخرج مـــرة في الشهر من القبر الذي وضعني فيه .

فقلت : وهل علم المطران بأنك تلتقين بي في هذا المكان ؟

فأجابت : لو علم بذلك لما رأيتني الآن جالسة بقربك ،

ولكن الشكوك تخامره والظنون تتلاعب بأفكاره ، وقد بث عليّ العيون لترقبني وأوعز الى خدمه ليتجسسوا حركاتي حتى صرت أشعر بأن للمنزل الذي اسكنه والطرقات التي أسير عليها نواظر تحدق بي وأصابع تشير إليّ وآذاناً تسمع همس أفكاري .

وأطرقت هنيهة ثم زادت والدمع ينسكب على وجنتيها : أنا لا أخاف على نفسي من المطران لأن الغريق لا يخشى البلل ، ولكنني أخاف عليك وأنت حر كنور الشمس أن تقع مثلي في أشراكه فيقبض عليك بأظافره. وينهشك بأنيابه أنا لا أخاف من الدهر لأنه أفرغ جميع سهامه في صدري ، ولكنني أخاف عليك وأنت في ربيع العمر أن تلسع الافعى قدميك وتوقفك عن المسير نحو قمة الجبل حيث ينتظرك المستقبل بأفراحه وأمجاده .

فقلت : ان من لا تلسعه أفاعي الأيام وتنهشه ذئاب الليالي يظل مغروراً بالأيام والليالي . ولكن اسمعي يا سلمى، اسمعيني جيداً ، أليس أمامنا غير الفراق لنتقي صغارة الناس وشرورهم ؟ هل سدت أمامنا سبل الحب والحياة والحرية فلم يبق غير الاستسلام الى مشيئة عبيد الموت ؟

فأجابت بلهجة يساورها القنوط والحسرة : لم يبق أمامنا غير الوداع والتفرق .

فأخذت يدها وقد تمردت روحي في داخلي وتبدد الدخان عن شعلة فتوتي، فقلت متهيجاً: قد استسلمنا طويلاً الى أهواء

الناس يا سلمى ... منذ تلك الساعة التي جمعتنا حتى الآن ونحن ننقاد الى العميان ونركع أمام أصنامهم . منذ عرفتك ونحن في يد المطران بولس غالب مثل كرتين يلعب بنا كيفما أراد ويقذفنا حيثما شاء ، فهل نبقى خاضعين لديه محدقين الى ظلمة نفسه حتى يلوكنا القبر وتبتلعنا الأرض ؟ هل وهبنا الله نسمة الحياة لنضعها تحت أقدام الموت ، وأعطانا الحرية لنجعلها ظلاً للاستعباد ؟ ان من يخمد نار نفسه بيده يكون كافراً بالسماء التي اوقدتها . ومن يصبر على الضيم ولا يتمرد على الظلم يكون حليف البطل على الحق وشريك السفاحين بقتل الابرياء . قد احببتك يا سلمى واحببتني ، والحب كنز ثمين يودعه الله النفوس الكبيرة الحساسة ، فهل نرمي بكنزنا الى حظائر الخنازير لتبعثره بأنوفها وتذريه بأرجلها ؟ امامنا العالم مسرحاً واسعاً مملوءاً بالمحاسن والغرائب ، فلماذا نسكن في هذا النفق الضيق الذي حفره المطران وأعوانه ؟ امامنا الحياة وما في الحياة من الحرية وما في الحرية من الغبطة والسعادة ، فلماذا لا نخلع النير الثقيل عن عاتقينا ونكسر القيود الموثقة بارجلنا ونسير الى حيث الراحة والطمأنينة ؟ قومي يا سلمى نذهب من هذا المعبد الصغير الى هيكل الله الاعظم . هلمي نرحل من هذه البلاد وما فيها من العبودية والغباوة الى بلاد بعيدة لا تطالها أيدي اللصوص ولا يبلغها لمساك الأبالسة . تعالي نسرع الى الشاطىء مستترين بوشاح الليل فنعتلي سفينة تقلنا الى ما وراء البحار وهناك نحيا حياة جديدة مكتنفة

بالطهر والتفاهم ، فلا تنفثنا الثعابين بأنفاسهـــا ، ولا تدوسنا الضواري بأقدامها . لا تترددي يا سلمى ، فهذه الدقائق اثمن من تيجان الملوك واسمى من سرائر الملائكة. قومي نتبع عمود النور فيقودنا من هذه الصحراء القاحلة الى حقول تنبت الأزاهر والرياحين .

فهزت رأسها وقـد شخصت عيناها بشيء غير منظور في فضاء ذلك الهيكل ، وسالت على شفتيها ابتسامة محزنة تعلن ما في داخل نفسها من الشدة والألم ، ثم قالت بهدوء : لا ، لا يا حبيبي ان السماء قد وضعت في يدي كأساً مفعمة بالخل والعلقم وقد تجرعتها صرفاً ولم يبق فيها غير قطرات قليـــلة سوف أشربها متجلدة لأرى ما في قعر الكأس من الأسرار والخفايا . أما تلك الحياة الجديدة العلوية المكتنفة بالمحبـــة والراحة والطمأنينة فأنا لا استحقها ولا أقوى على احـــتمال أفراحها وملذاتها ، لأن الطائر المكسور الجناحين يدب متنقلاً بين الصخور ولكنه لا يستطيع ان يسبح محلقاً في الفضـــاء ، والعيون الرمداء تحدّق الى الأشياء الضئيلة ولكنهـا لا تقوى على النظر الى الأنوار الساطعة ، فلا تحدثني عن السعادة لان ذكرها يؤلمني كالتعاسة ، ولا تصور لي الهناء لأن ظله يخيفني كالشقاء ... ولكـــن انظر إليّ لأريك الشعلة المقدسة التي أوقدتها السماء بين رماد صدري .. أنت تعلم بأنني أحبك محبة الأم وحيدها ، وهي المحبة التي علمتني أن أحميك حتى ومن

٩٠ ـــــــ

فتذكرت ما قلته لي مرة وهو : هلمي يا سلمى نقف أمـــام الأعداء متلقين شفار السيوف بصدورنا ، فان صرعنـــا نمت كالشهداء وان تغلبنا نعش كالابطال، لأن عذاب النفس بثباتها امام المصاعب والمتاعب هو أشرف من تقهقرها الى حيث الأمن والطمأنينة ... هذه الكلمات قلتهـا لي يا حبيبي عندما كانت أجنحة الموت ترفرف حول مضجع والدي ، وقد ذكرتهـــا بالأمس وقد كانت أجنحة اليأس تصفق حول رأسي، فتقويت وتشجعت وشمرت وانا في ظلمـــة السجن بنوع من الحرية النفسية التي تستهون الشدائـد وتستصغر الأحزان ، ورأيت حبنا عميقاً كالبحر عالياً كالنجوم متسعاً كالفضاء . وقد جئت اليوم اليك وفي نفسي المتوجعة المنهوكة قوة جديدة وهي المقدرة على تضحيـة الأمر العظيم للحصول على أمر أعظم ، تضحيـة سعادتي بقربك لكي تبقى أنت شريفاً بعرف الناس بعيداً عن غدرهم واضطهادهم ... كنت اجيء بالأمس الى هذا المـكان والقيود الثقيلة تغـل قدمي الضعيفتين ، اما اليوم فقد جئت شاعرة بعزم يهزأ بثقل القيود ويستقصر الطريق. كنت اجيء مثل طيف طارق خائف ، اما اليوم فقد جئت مثـل امرأة حية تشعر بوجوب التضحية وتعرف قيمة الأوجاع وتريد ان تحمي من تحبه من الناس الأغبياء ومن نفسها الجـائعة . كنت أجلس حذاءك مثل ظل مرتجف وقد أتيت اليوم لأريك حقيقتي أمام عشتاروت المقدسة ويسوع المصلوب . انا شجرة نابتة في

الظل وقد مددت اغصاني اليوم لكي ترتعش ساعة في نور النهار ... قد جئت لأودعك يا حبيبي فليكن وداعنا عظيماً وهائلاً مثل حبنا ، ليكن وداعنا كالنار التي تصهر الذهب لتجعله اشد لمعاناً .

ولم تترك لي سلمى مجالاً للكلام والاحتجاج بل نظرت الي وقد برقت عيناها فأحاطت أشعتها بوجداني واتشحت ملامح وجهها بنقاب من الهيبة والجلال فبانت كمليكة توحي الصمت والتخشع . ثم ارتمت على صدري بانعطاف كلي ما عهدته فيها قبل تلك الساعة ، وطوقت عنقي بزندها الأملس وقبلت شفتي قبلة طويلة عميقة محرقة أيقظت الحياة في جسدي ، وأثارت الأسرار الخفية في نفسي ، وجعلت الذات الوضعية التي أدعوها « أنا » تتمرد على العالم بأسره لتخضع صامتة أمام الناموس العلوي الذي اتخذ صدر سلمى هيكلاً ونفسها مذبحاً .

* * *

ولما غربت الشمس وامحت أشعتها الأخيرة عن تلك الحدائق والبساتين انتفضت سلمى ووقفت في وسط الهيكل ونظرت طويلاً إلى جدرانه وزواياه كأنها تريد أن تسكب نور عينيها على رسومه ورموزه ، ثم تقدمت قليلاً وجثت خاشعة أمام صورة يسوع المصلوب وقبلت قدميه المكلومتين مرات متوالية ثم همست قائلة :

ها قد اخترت صليبك يا يسوع الناصري وتركت مسرات عشتاروت وأفراحها . قد كللت رأسي بالأشواك بدلاً من الغار، واغتسلت بدمي ودموعي بدلاً من المطور والطيوب ،وتجرعت الخل والعلقم بالكأس التي صنعت للخمر والكوثر، فاقبلني بين تابعيك الأتقياء بضعفهم وسيرني نحو الجلجلة برفقة مختاريك المستكفين بأوجاعهم المغبوطين على كآبة قلوبهم .

ثم انتصبت والتفتت نحوي قائلة :

سأعود الآن فرحة الى الكهف المظلم حيث تتراكض الأشباح المخيفة، فلا تشفق عليّ يا حبيبي ولا تحزن من أجلي، لأن النفس التي ترى ظل الله مرة لا تخشى بعد ذلك أشباح الأبالسة ، والعين التي تكتحل بلمحة واحدة من الملإ الأعلى لا تنمضها أوجاع هذا العالم .

وخرجت سلمى من ذاك المعبد ملتفة بملابسها الحريرية وتركتني حائراً ضائعاً مفكراً مجذوباً إلى مسارح الرؤيا حيث تجلس الآلهة على العروش وتدون الملائكة أعمال البشر وتتلو الأرواح مأساة الحياة وتترنم عرائس الخيال بأناشيد الحب والحزن والخلود .

ولما صحوت من هذه السكرة ، وكان الليل قد غمر الوجود بأمواجه القاتمة ، وجدتني هائماً بين تلك البساتين مسترجعاً الى حافظتي صدى كل كلمة لفظتها سلمى ، معيداً الى نفسي حركاتها وسكناتها وملامح وجهها وملامس

يديها ، حتى اذا ما اتضحت لي حقيقة الوداع ومـا سيجيء بعده من ألم الوحشة ومرارة الشوق جمدت فكرتي وتراخت خيوط قلبي وعلمت لأول مرة ان الانسان وإن ولد حرّاً يظل عبداً لقساوة الشرائع التي سنها آباؤه وأجداده ، وان القضاء الذي نتوهمه سرّاً علوياً هو استسلام اليوم الى مآتي الأمس ، وخضوع الغد الى ميول اليوم . وكم مرة فكرت منذ تلك الليلة الى هذه الساعة بالنواميس النفسية التي جعلت سلمى تختار الموت بـــدلاً من الحياة ، وكم مرة وضعت نبالة التضحية بجانب سعادة المتمردين لأرى أيهما أجل وأجمل ، ولكنني للآن لم أفهم سوى حقيقة واحدة وهي ان الاخلاص يجعل جميع الأعمال حسنة وشريفة ، وسلمى بكرامه كانت الاخلاص متأنساً وصحة الاعتقاد متجسدة .

المنقذ

●

ومرت خمسة أعـــوام على زواج سلمى ولم ترزق ولداً ليوجد بكيانه العلاقة الروحية بينها وبين بعلهـــا ويقرب بابتسامته نفسيها المتنافرتين مثلما يجمع الفجر أواخر الليـل وأوائل النهار .

والمرأة العاقر مكروهة في كل مـكان لأن الأنانية تصور لأكثر الرجال دوام الحياة في أجساد الأبناء فيطلبون النسل ليظلوا خالدين على الأرض .

ان الرجل المادي ينظر الى زوجته العاقر بالعين التي يرى بها الانتحار البطيء فيمقتها ويهجرها ويطلب حتفها كأنهـــا عدو غدار يريـــد الفتك به . ومنصور بك غالب كان مادياً كالتراب وقاسياً كالفولاذ وطامعاً كالمقبرة ، وكانت رغبته بابن يرث اسمه وسؤدده تكرُّهه بسلمى المسكينة وتحول محاسنها في عينيه الى عيوب جهنمية .

ان الشجرة التي تنبت في الكهف لا تعطي ثمراً ، وسلمى كرامه كانت في ظل الحياة فلم تثمر اطفالاً . ان البلبل لا يحوك عشّاً في القفص كيلا يورث العبودية لفراخه ، وسلمى

٩٦ ـــــــ

من الجمال ، وكل ما في مجيء الفجر من المسرة ، يجتمع بين أضلع المرأة التي حرمها الله ثم اعطاها .

لا يوجد نور أشد سطوعاً واسكاراً لمآناً من الاشعة التي يبعثها الجنين السجين في ظلمة الاحشاء .

وكان نيسان قد جاء متنقلاً بين الروابي والمنحدرات عندما تمت ايام سلمى لتلد بكرها ، وكأن الطبيعة قد وافقتها وعاهدتها فأخذت تضع حمل ازاهرها وتلف بأقمطة الحرارة اطفال الأعشاب والرياحين .

مضت شهور الانتظار وسلمى تترقب الخلاص مثلما يترقب المسافر طلوع كوكب الصباح ، وتنظر الى المستقبل من وراء دموعها فتراه مشعشعاً ؛ وقد طالما ظهرت الأشياء القاتمة متلمعة من خلال الدموع .

ففي ليلة وقد طافت أشباح الظلام بين تلك المنازل في رأس بيروت ، انطرحت سلمى على مضجع المخاض والأوجاع ، فانتصب الموت والحياة يتصارعان بجانب فراشها ، ووقف الطبيب والقابلة ليقدما الى هذا العالم ضيفاً جديداً ، وسكنت حركة عابري الطريق وانخفضت نغمة أمواج البحر ولم يعد يسمع في ذلك الحي سوى صراخ هائل يتصاعد من نوافذ منزل منصور بك غالب .. صراخ انفصال الحياة عن الحياة .. صراخ محبة البقاء في فضاء اللانهيء والعدم ... صراخ قوة الانسان المحدودة امام سكينة القوى غير المتناهية .. صراخ سلمى الضعيفة المنطرحة تحت أقدام

٩٨ ـــــــ

الطبيب وتصرخ قائلة: أعطني ولدي لأضمه ، ثم تحدق ثانية فترى الموت والحياة يتصارعان بجانب سريرها .

مات الطفل ورنات الكؤوس تنمو وتتكاثر بين أيدي الفرحين بمجيئه .

ولد مع الفجر ، ومات عند طلوع الشمس ، فأي بشري يستطيع أن يقيس الزمن ليخبرنا ما إذا كانت الساعة التي تمر بين مجيء الفجر وطلوع الشمس هي أقصر من الدهر الذي يمر بين ظهور الأمم وتواريها ؟

ولد كالفكر ، ومات كالتنهدة ، واختفى كالظل ، فأذاق سلمى كرامه طعم الأمومة ولكنه لم يبقَ ليسعدها ويزيل يد الموت عن قلبها .

حياة قصيرة ابتدأت بنهاية الليل وانقضت بابتداء النهار ، فكانت مثل قطرة الندى التي تسكبها أجفان الظلام ثم تجففها ملابس النور .

كلمة لفظتها النواميس الأزلية ، ثم ندمت عليها وأعادتها الى سكينة الأبدية ...

لؤلؤة قذفها المدّ الى الشاطىء ، ثم سحبها الجزر الى الأعماق ...

زنبقة ما انبثقت من أكمام الحياة حتى انسحقت تحت أقدام الموت ..

ضيف عزيز ترقبت سلمى قدومه ولكنه ، ما حل حتى ارتحل ، وما فتح مصراعي الباب حتى اختفى .

١٠٠ ـــــــ

منصور بك غالب فلم يصرخ ولم يتنهد ولم يذرف دمعة ولم يفه بكلمة بل لبث جامداً منتصباً كالصنم قابضاً بيمينه على كأس الشراب .

* * *

في اليوم التالي كفنت سلمى بأثواب عرسها البيضاء ووضعت في تابوت موشى بالخمل الناصع ، أما طفلها فكانت أكفانه أقمطته وتابوته ذراعي أمه وقبره صدرها الهادىء .

حملوا الجثتين في نعش واحد ومشوا ببطء متلفت يشابه طرقات القلوب في صدور المنازعين ، فسار المشيّعون وسرتُ بينهم وهم لا يعرفونني ولا يدرون ما بي .

بلغوا المقبرة فانتصب المطران بولس غالب يرتل ويعزم ، ووقف الكهان حوله ينغمون ويسبحون وعلى وجوههم الكالحة نقاب من الخلو والغفول .

ولما أنزلوا التابوت إلى أعماق الحفرة همس أحد الواقفين قائلاً :

هذه أول مرة رأيت جسدين يضمها تابوت واحد ...

وقال آخر :

كأن طفلها قد جاء ليأخذها وينقذها من مظالم زوجها وقساوته .

وقال آخر :

تأملوا بوجه منصور بـــك فهو ينظر الى الفضاء بعينين زجاجيتين كأنه لم يفقد زوجته وطفله في يوم واحد .

١٠٢ ـــــــ

فهرست

الموضوع	صفحة
كلمة الناشر	٥
توطئة	٧
الكنـآية الخرساء	١١
يد القضاء	١٥
في باب الهيكل	٢٠
الشعلة البيضاء	٢٥
العاصفة	٢٩
بحيرة النار	٤٣
أمام عرش الموت	٦١
بين عشتروت والمسيح	٧٧
التضحية	٨٤
المنقذ	٩٥

To: www.al-mostafa.com